



فلاسفة العرب



الغزالي

الجزء الثاني

AUB LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



AUB. LIBRARY

كس

الم

زار

على

تم

لار

وح

اف

هذه

ال

ال

ال

ال

فر

ما

ان

ال

سور

ال

فر

سور

سور

الفرازي المتكلم

كيف برهن وجود الله
اعتباره صفات الله بظن غير فائد على ذاته وبظن
زائد على ذاته .
علم الله : مقارنة بين نظرية الفزالي ونظرية الفلاسفة
قوله ١٩٨١ : نفى تامر السببية معنى التكليف
إدراك الله : علاقة إدراك الله بقدم العالم
وحدوثه .
أفعال الله : حق الله انشرف بمخلوقاته ونتائج
هذا الحق .

النسبة : تحديه ها - الروديا - الإسلام : الطرق المختلفة
في المعرفة عند الانسان
الحشر

فرازي : إن الامكان لا امتناع مسألة فكرة لا يتحتم
"فائدة" فإذا احتاج الامكان إلى مارة فالامتناع كذلك
إننا لا نجد للامتناع قاعدة . وأما الباطن بالسواد ليس
الذي يوجد ولكن يوجد الشيء الأبدي والآخر
معرفة الله بالجزئية (المسألة الثانية) .

الله لا يعرف إلا الكليات ، دون الجزئيات لأن
نقطة العلم تابع للمعلوم فإذا تغير العلم تغير المعلوم
لأنه لا يكون الذات الالهية محلاً للتغير وهو محال .
فرازي : انتم تقولون إن الله يعرف الكليات وهي
متلفة بل إن الاختلاف بين أبعد من الاختلاف بين

الكلمة وجزءها. فلماذا يذن مجرول الجزئية وطوي
من الكلمات في الاختلاف.

III حشر الأجساد (المادة الثالثة)
الفلافة: بأن الأجساد فانية لا تترك
ولا يمكن أن تعود إلا مثلما كانت عليه.
الفرابي: إنما لا نقول أن هذه الأجساد تعود هي
بفعل الله تعالى الذي خلق هذا الجسد قادراً على
خلق جسد آخر يخلق به.

ابن عبد الوهاب

فلسفة

الأب يوحنا قنير

أستاذ الفلسفة العربية في جامعة القديس برونس

181.07

G411Y9m A

V.2

الغزالي

الكتاب



دراسة - مختارات

طبعة ثانية منقحة

الجزء الثاني

المطبعة الكاثوليكية

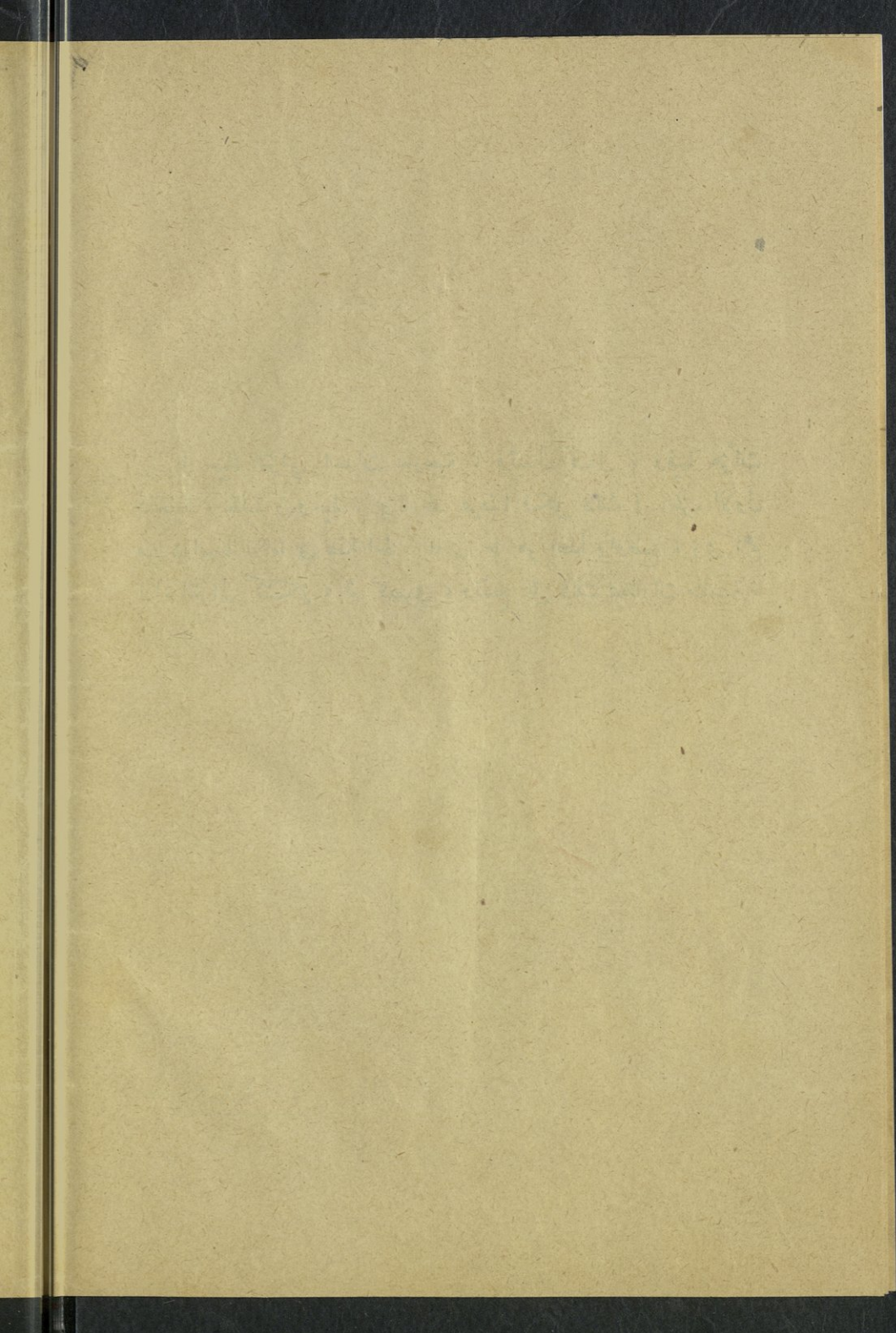
بيروت

الكتاب

كتاب

كل الحقوق محفوظة

في حياة الغزالي احداث خارجية ، وتبدل آفاق ، وفيها هزأت
داخلية ، عقلية وروحية . وانا قد عرضنا لكل ذلك في الجزء الاول
من دراستنا . اما في هذا الجزء فنرى ما هو اهدأ وارضح ، نرى اهم
اراء الغزالي كمتكلم ، ثم كصوفي ، ونتبع كل ذلك بمختارات مناسبة .



المشكلم

كان الغزالي متكلماً حين دافع عن عقائد السنة ، عن عقائد مذهبه الرسمي ، فهاجم الباطنية ، وهاجم الفلاسفة .

وكان متكلماً ايضاً حين عرض عقائد السنة في اهم مسائل الكلام : في ذات الله وصفاته وافعاله ، وفي الامامة والنبوة والحشر .

وانما لن نعود على جداله للباطنية ، ونزجى الى دراسة مستقلة جداله للفلاسفة في «تباينه» ، مكثفين ببسط ارائه الكلامية «الرسمية» في المسائل التالية :

١ - وجود الله

ان الانسان مجبول في فطرة عقله على معرفة الله . وانه اذا رأى ما في خلق الله من ترتيب محكم ، وامر عجيب ، اقر بضرورة صانع يدبر ، وفاعل يدير ويقدر .

وللغزالي ، غير ذلك ، برهان طويل نوجزه لك في ما يلي :

ان لكل حادث سبباً .

وان العالم الجسماني حادث . فله اذا سبب .

اما برهان حدوث الاجسام فحاصل من انها لا تتخلو من الحوادث ، من الحركة والسكون . فلو لم تكن الاجسام حادثة ، لما كان للحركة والسكون اول ، وكان عدد من الحركات لا نهاية له ، وهو محال .

اذا الاجسام حادثة ، ولها سبب هو الله .

واذا قد ضلّ الفلاسفة ، اذ قالوا بقدّم العالم ، لا بل كفروا اذ خالفوا تعليم الشرع في ذلك .
فالغزالي ، كما رأيت ، يستند في اثبات وجود الله الى ما في العالم من نظام عجيب ، والى استحالة عدد من الحركات لانهاية له ، فينتهي الى محدث أوّل ، هو سبب العالم ومنظمه .

ب — صفات الله

في الله ذات وصفات .
وبعض الصفات غير زائد على الذات ، وبعضها زائد .
ان ما ليس زائداً على الذات ، فإليك بعضه :
ان الله ازلي ، ليس لوجوده أوّل ، ابدي ليس لبقائه آخر .
وان الله واحد ، لا شريك له . ذاك انه لو قدّر الله شريك ، لكان مثله في كل الوجوه ، وذاك محال ، لأن كل اثنين ضرورة متغايران . ولو جاز وجود اثنين دون مغايرة ، « لجاز ان يشار الى انسان واحد ، ويقال انه انسانان ، بل عشرة ، وكلها متساوية ، متماثلة . »^{١)}
وان الله مرئي في الآخرة بالابصار ، خلافاً لما زعم المعتزلة ، وان يكن لا جسم له ولا جهة . ذاك انّا ان نرى الله ، كما نرى الاجسام والالوان ، وانما الرؤية نوع من الادراك ، اتم من ادراك العقل ووضح ، لا يحيلها العقل ، ويقرها الشرع .

•

اما الصفات الزائدة على الذات فوسع : القدرة ، والعلم ، والحياة ، والارادة ، والسمع ، والبصر ، والكلام .
ان هذه الصفات ليست هي الذات — كما ادعى المعتزلة والفلاسفة —

بل هي زائدة عليها ، قائمة بها . ان الله قادر بقدره ، عالم بعلم ، حي بحياة ... لا قادر بذاته ، عالم بذاته ، حي بذاته ...
ذاك ان المفهوم من قولنا عالم ، مثلاً ، غير المفهوم من قولنا موجود ، فعلم الله اذاً غير وجوده ، وانما هو صفة زائدة على الوجود . وكذلك مفهوم قولنا قادر غير مفهوم قولنا عالم ، واذاً العلم غير القدرة . فالصفات متميزة بعضها عن بعض ، متميزة عن الذات^(١) .



ولنتوقف الان قليلاً على بعض هذه الصفات على القدرة ، والعلم ، والارادة .

علم الله:

اما علم الله فيتسع في رأي الغزالي الى كل معلوم ، موجود او ممكن الوجود ، الى معرفة ذاته ، ومعرفة كل مخلوقاته .
ويتفق الغزالي في هذا والفلاسفة ، على انه يخالفهم في شرح كيفية العلم الالهي .

لقد قال الفلاسفة ان علم الله بالاشياء واحد ، لا متغير . واذاً الله يعلم الاشياء ، لا عند حدوثها ، وفي ذاتها ، بل في الازل ، وفي ذاته ،

(١) ونحن نرى ان الصفات غير متميزة في الحقيقة عن ذات الله ، او بعضها عن بعض ، لأن كل صفة الهية لا متناهية ، حاوية في الحقيقة لكل ما يحويه الله ، فالقدرة مثلاً ، هي ايضاً علم واردة وحياة ... انما اذا نظر اليها العقل من ناحية خاصة ، فيميزها عن الذات ، ويميزها بعضها عن بعض . فهكذا اذا نظر الى القدرة ، من حيث هي قدرة فقط ، يميزها عن الذات ، من حيث هي ذات ، وعن العلم من حيث هو علم ... فالتمييز اذاً غير حاصل في الله قبل توسط العقل ، حاصل في العقل المحدود اذ ينظر الى اللامتناهي ، ناتج عن هذه الوحدة السحيقة بين ادراكنا الضعيف واللاخاتية الالهية .

علة كل شيء . ان الفلكي ، وقد عرف نظام الافلاك ، يعرف كل كسوف مستقبل ، وزمان حدوثه . وان الله ، علة العالم ، وعلة ما فيه من نظام ضروري ، يعلم في ذاته ، وفي الازل ، كل سلسلة الاسباب والمسببات التي ستصدر عنه .

ورأى الغزالي ان هذا النوع من العلم يقتصر حتماً على معرفة الكلّيات ، على معرفة ما هو الانسان المطلق ، وما هي عوارضه وخواصه ، ولا يتسع الى معرفة الاشخاص باعيانها ، الى معرفة زيد بعينه ، مثلاً ، وما يصدر عنه من خير ومن شر . وان هذا استئصال للشرائع الالهية ، وانه كفر ذميم .



ونحن نرى ان الفلاسفة قد جعلوا علم الله بالاشياء نوعاً من الاستنتاج ، سيما حين قارنوه بعلم الفلكي ، فبدا ان الله يستنتج وجود الاشياء من معرفته اسبابها ، وهو علم لا يجوز في حقه^(١) .
على ان الغزالي قد تجاوز فكرة الفلاسفة ، وافسد رأيهم ، اذ جعل الله ، في نظرهم ، يجهل الاشياء باعيانها ، لانهم قالوا انه لا يعزب عنه مثقال ذرة مما في السماوات او في الارض .

(١) ان الله يعلم كل شيء ، ويعلمه كما هو . اذا علمه غير معلول لاشياء كعلمنا ، وغير استنتاجي . انه علم ازلي ، واحد ، لا يتغير مع الاشياء والازمنة ، لان كل شيء مائل لديه في نظرة واحدة الحية ، تصل الازل بالابد ، وترى كل ما يجري بينها . واذ لا يعلم الله الاشياء في ذاتها ، عند حدوثها ، بل في ذاته ، وفي الازل .
وان كيفية علم الله ، اذا تطرقنا الى كل ما نفترضه من مشاكل ، لسر محبول ، يتلعم في شرحه اللسان ، ويكلّ العقل . وهل عرفنا بعد كيف نعلم نحن ، فنجاري غرورنا ونشرح كيف يعلم الله ؟ الا اسمعوا ما يقوله القديس اغسطينوس : « لا تنتظروا ، اخوتي ، ان اشرح لكم كيف يعلم الله . شيئاً واحداً اعرف ، وهو انه لا يعلم كالانسان ، ولا يعلم كالملاك . اما كيف يعلم ، فامر اشفق من شرحه ، لاني اعجز من ان اعرفه . »

قدرة الله :

واما قدرة الله ، فإليك بعض آراء الغزالي فيها .
 ان الله قادر على كل شيء ، خالق لكل شيء ، للجواهر والاعراض ،
 للكائنات واعمالها . ويذهب الغزالي الى ابعاد استنتاج فيقول بان الله هو
 السبب الوحيد لكل عمل في الجماد ، ولكل قدرة وفعل في الحيوان والانسان .
 ليست النار ، مثلاً ، سبباً لاحتراق القطن ، بل الله هو السبب . ان
 ملاقاته القطن للنار شرط في الاحتراق ، وقد اتخذها الله سنة لا يحرق
 القطن الا عند ملاقاته النار ، ولكنه يستطيع خرق هذه السنة فتكون
 المعجزات . وان الفلاسفة قد ضلوا ، اذ نسبوا السببية للمحسوسات ،
 وقالوا بضرورة اقتران السبب بالمسبب ، فنفوا المعجزات ، او جعلوها
 قدرة طبيعية في بعض النفوس . ان المعجزة فعل الله .

وان الله سبب الاعمال في الحيوان ، والا من اين كان للعنكبوت ،
 مثلاً ، ان تنسج من البيوت غرائب الاشكال ، وللنحل ان «تشكل
 بيوتها على شكل التسديس ، فلا يكون فيها مربع ولا مدور»^(١) ،
 ولولد الهرة ان يدب الى ثدي امه وهو مغمض العينين ؟

وافعال الانسان ما شأنها ؟

ان افعال الرعدة مقدورة لله ، لانها تصدر عن الانسان دون سابق
 ارادة او علم ، ولانه عن دفعها عاجز .

وان الافعال الاختيارية مقدورة ايضاً لله ، لانها حادثة ، وكل حادث خلق له^(٢) .

(١) الاقتصاد في الاعتقاد ص ٤٢

(٢) بين افعال الرعدة والافعال الاختيارية فرقان : الفرق الاول هو ان الله
 يخلق افعال الرعدة دون ان يخلق القدرة عليها ، بينما يخلق القدرة على الافعال الاختيارية
 قبل ان يخلقها . والثاني هو ان افعال الرعدة لا يسبقها معرفة او تردد ، ويسبق
 الافعال الاختيارية تردد عقلي في افضل المتقابلين .

ويحلل الغزالي الفعل الاختياري على الوجه التالي : ان العقل يتردد
احياناً في خيرية الفعل ويختار ، ويظل متردداً حتى يتميز ان الخير في
الفعل او الترك ، وحينئذ تنبعث الارادة ضرورة ، ويكون الفعل . واعلم
ان حكم العقل نفسه يحدث جبراً . فالانسان مجبور على الاختيار .

والفعل بعد ليس خلقاً للانسان ، بل لله ، الذي يخلق الفعل بعد
القدرة ، والقدرة بعد الارادة ، والارادة بعد العلم .

وما علاقة قدرة الانسان اذاً بالفعل ، وما معنى التكليف ؟

ان الفعل ، في نظر الغزالي ، متعلق بقدرتين ، قدرة الله و قدرة
العبد ، على انه متعلق بقدرة الله تعلق المسبب بالسبب ، متعلق بقدرة العبد
تعلق المشروط بالشروط . ويجادل الغزالي طويلاً في امكان افتراض قدرة
للعبد ، لا تتعلق بالمقدور تعلق التأثير والايجاد ، ويقر بانها قدرة بالعجز
اشبه ، مها اضيفت الى قدرة الله .

اما التكليف فغاياته التخويف . والخوف سبب لترك الشهوات ،
سبب للنجاة ، والله مسبب الاسباب ومرتبها . فاهل الجنة مقودون الى
الجنة بسلاسل الاسباب ، وهي تسليط العلم والخوف عليهم ، واهل النار
مقودون الى النار بالسلاسل ، وهو تسليط الغفلة والامن عليهم ، وكاهم
الى ما يساق مقهور .

وكل ذلك بعد عدل من الله ، وليس في الامكان احسن منه او
اتم . لولا الليل لما عرف قدر النهار ، ولولا المرض لما عرف قدر الصحة ،
وكذلك لولا النار لما عرف اهل الجنة قدر الجنة . ما لم يخلق الناقص ، لم
يعرف الكامل ، ففتضى الجود والحكمة خلق الكامل والناقص جميعاً .

فالغزالي ، كما رأيت ، يتفق والفلاسفة على القول بالجبر ، وان
اختلفوا في التعليل .

وانه يخالف المعتزلة ، الذين قالوا بخرية الانسان ، وبان فعله خلق له وحده ، لا علاقة به لله^(١) .

ارادة الله :

واما ارادة الله فقد اختلف الغزالي والفلاسفة في شرح تعلقها بالمراد ، او ايجاد العالم بنوع عام . قال الفلاسفة ان الله بارادة قديمة اوجد العالم ، وان العالم معلول قديم . وقال الغزالي ان الله بارادة قديمة اوجد العالم في الوقت الذي وجد فيه ، وان الارادة قد ميزت وقتاً ما عن غيره من الاوقات المتماثلة ، لان الارادة صفة من شأنها تمييز الشيء عن مثله خلافاً لما زعم الفلاسفة .

وجدل الغزالي للفلاسفة يطول ، فانه يستغرق فصولاً من كتاب «تهافت الفلاسفة» .

وان مسألة الارادة هذه هي مسألة قدم العالم وحدوثه ، وكل ما دار حول هذه المشكلة من جدل . ولب الجدل يعود الى هذا : الفلاسفة يقولون بارادة قديمة ، وبالتالي بفعل قديم ، يستحيل تراخي المفعول عنه ، والغزالي لا يحيل تراخي المفعول عن الفعل ، انما يحيل وجود عالم قديم ،

(١) اما نحن فنرى ان المخلوقات اسباب حقيقية لافعالها ، وان الله سبب حقيقي لهذه الافعال . لا معنى لموجود لا فعل له ، ولا وجود الا بايجاد الله . ان فعل الانسان معلول له ، ومعلول لله ايضاً ، انما على تفاوت في السببية ، فالله يعمل كلمة اولى ، والانسان كلمة معلولة . ان فعل المخلوق تابع لوجوده : ان وجودنا من الله ، به حدث ، وبه يدوم ، وان وجودنا ليس وجود الله . كذلك فعلنا ، فانه فعل الله ، وفعلنا ايضاً . اما اذا شئت ان تعرف كيف يتوارد سببان على فعل واحد ، وكيف يظل الفعل الانساني حرّاً على الرغم من ايجاد الله له ، فظنك تجاوز حدك . ذاك ان الايجاد الالهي خارج عن نطاق مداركنا ، لا جارية تحسه ، او وجدان يخبره ، وان الكيفيات الالهية اجمالاً تفوق ادراكنا المحدود ، فاكتفِ بطرفي السلسلة بان تعرف ان الله خالق كل شيء ، وبان الانسان حرّ ، خالق لاعماله .

لانه يحيل وجود حوادث لا اول لها ، ولا نهاية لعددها . وما ننوي الان ان نتوقف على هذه المسألة .

ج - افعال الله

يتوقف القرآني ، في الكلام عن افعال الله ، على صفة اساسية ، هي حق التصرف المطلق في عباده ، او ما يمكن تسميته التجويز . فكذا يجوز لله :

١ - الآ يخلق الخلق ، واذا خلقهم الآ يكلفهم . وقالت طائفة من المعتزلة بوجوب الخلق ، والتكليف بعد الخلق .

٢ - ان يكلف العباد ما يطيقون وما لا يطيقون . وذهبت المعتزلة الى انكار ذلك .

٣ - الآ يراعي الاصلح لعباده ، بل له ان يفعل ما يشاء ، ويحكم بما يريد . وقالت المعتزلة برعاية الاصلح .

٤ - الآ يثيب على طاعة ، والآ يعاقب على معصية ، بل ان شاء اثاب ، وان شاء عاقب ، ولا يبالي لو غفر لجميع الكافرين ، وعاقب جميع المؤمنين ، وان الصفح بالله اولى . وقالت المعتزلة بوجوب ثواب الطاعة وعقاب المعصية .

وحجة القرآني في كل ذلك ان الواجب والحسن والقبيح الفاظ اخطأ الناس معناها .

ان الواجب ما في تركه ضرر ، والحسن ما وافق غرض الفاعل ، والقبيح ما تافى ذاك الغرض . وان الله بآمن من الضرر ، متزه عن الاغراض ، واذا لا واجب عليه ، ولا حسن في حقه او قبيح ^(١) .

(نفسه لا يضره)

(١) ونحن نرى ان هذه التجاديد ناقصة ، فاسدة .

اجل ان الله خلق العالم مختاراً ، وانه راعى الصالح ، لا الاصلح ، وانما هناك

د - النبوة

النبوة طور وراء العقل ، نبصر فيه غيباً ، ونرى آتياً ، ونطلع على مجهول . وان تشك في النبوة ، فلك عليها قرائن وادلة . ان النائم يدرك الغيب ، والنوم اغوذج من خاصية النبوة . وان علم الطب والنجوم لأبعد من ان ينالهما عقل ، وانما نيلا بالهام ، وعلمهما انبياء ! وان ادوية القلوب المرضى - كادوية الاجسام - لا تدرك ببضاعة العقل ، بل بنور النبوة ، بما سنه الانبياء من عبادات ، وورشدون اليه من تقى . وان معجزات الانبياء ، اذا قارنها في النبي خلق سليم ، وهدى مصيب ، واذا رافقتهم القرائن ، وسندتها الدلائل تورث في النفس يقيناً ، وتقوى على ما يوردون ضد المعجزات من اشكال الكلام ، ومن شبهات السحر والاضلال .

ولك الى اثبات النبوة سبيل آمن من كل ذاك ، من كل معجزة وقريئة ، وكأنك تشاهد بالعين ، وتأخذ باليد ، هي سبيل الذوق عن طريق سلوك الصوفية .

ان الالهام الصوفي نوع من الوحي ، اذا بلغته ، ادركت جوهر النبوة . وان الفرق بين النبي والصوفي هو ان النبي يرى بوضوح ما يلهجه الصوفي لمحا . ان الالهام اضعف من الوحي ، كما ان الرؤيا اضعف من الالهام . الوحي حليلة الانبياء ، والالهام حليلة الاولياء . على ان الوحي

اشياء تقضي بها طبيعة الله ، وطبيعة الانسان . يأتى العقل ان يكون هذا الانسان الحر العاقل ، والآ يكون مقيداً بطبيعته العاقلة ، بخير عمله ، وشر بتيقه ، نزل وحي بذلك ام لا . ان الله ، حين يخلق الانسان ، يريد انساناً يعمل ما يقتضيه الكمال الانساني نفسه ، ولا بد اذاً من ثواب وعقاب . وان ارادة الله هذه لارادة ضرورية ، ناتجة عن حكمة الله في خلقه . واذاً التكليف واجب ، والثواب والعقاب واجبان . اما تكليف الخلق ما لا يطبقون فبناف لكمال الله ، مناف للعقل ، وانها لحاقة لا يقدم عليها بشر ، فكيف بالله العادل الحكيم ؟

قد انقطع ، وباب الرسالة انسد ، اما باب الالهام فلا ينسد ، ومدد نوره فلا ينقطع .

واذاً للانسان الى المعرفة طريقان : بشري ورباني . اما الطريق البشري فهو طريق العقل ، يسير على نوره ، وينمو بالتعلم والتفكير . ولكن العقل عاجز في ادراكه الحق ، عرضة للضلال ، هدف للشبهات ، غير واثق من ذاته . وهو ، فوق ذلك ، لا يقوى على هداية ، او يستطيع للقلوب شفاء ، وعن المعاصي زجراً ، وللاهلواء ردهاً . وبالتالي لا يستطيع العقل بذاته ثقة ، ولالحق ادراكاً ، والى الخير سبيلاً ، واذاً هو بحاجة الى نور الهي ، يعيد اليه الطمأنينة ، ويهديه الصواب ، ويورثه التقى .

هـ - الحشر

قبل البحث في حشر الاجساد ، يثبت الغزالي هذا المبدأ : اذا اثبت الشرع امرأ ، ورآه العقل جائزاً ، او لم يقض باستحالاته ، وجب التصديق به . اما ما اثبتته الشرع ، واحاله العقل ، فيجب تأويله ، لان الشرع لا يعلم محالاً .

اما الحشر فقد اثبتته الشرع ، ولا يقضي العقل باستحالاته ، لان ما امكن خلقه ، يمكن اعادته . وعليه يجب التصديق بحشر الاجساد ، ويجب تكفير الفلاسفة الذين انكروه .



الصوفي

التصوف هو السيرة العملية التي انتهى اليها الغزالي ، ورأى ان يسلكها ويدعو اليها .

وقد وصف هذه السيرة في كتب عديدة ، اهمها كتاب احياء علوم الدين ، ولهذا نرى ان نعتمد هذا الكتاب في عرض تصوف الغزالي ، دون ان نهمل باقي كتبه ، فندرس تباعاً :

١ — العبادات

العبادات هي الفروض الاسلامية : الطهارة ، والصلاة ، والزكاة ، والحج ، والصيام .

وكان الفقه يبحث هذه الفروض ، ويستقصي شروطها . على ان الغزالي يرى ان الفقه اقتصر على وصف الاعمال الظاهرة ، وفاتته الروح . قال في حديثه عن الصلاة : « وقد استقصينا ، في فن الفقه ، ... اصولها وفروعها ... ونحن الآن ... كاشفون عن دقائق معانيها الخفية ، في معاني الخشوع والاخلاص والنية ، ما لم تجر العادة بذكره في فن الفقه »^١ .

لهذا يعود الغزالي الى هذه الفروض ليعث فيها الحياة ، ويبث فيها الروح ، فلا تبقى مجرد اعمال ظاهرة ، اقماتها العادة ، واقتصر عليها المؤمنون .

واذاً ليست الطهارة نظافة خارجية ، ونوعاً من الزينة ، بل هي ، في مفهومها الديني ، تطهير الجوارح عن الاثم ، وتطهير القلب عن الرذائل ، وتطهير السر عما سوى الله .

واذاً ليست الصلاة تحريك لسان بكلام ، وحركة جسم بركوع ، بل هي حضور قلب ، وفهم الفاظ ، وهي تعظيم لله ، وهيبة منه ، ورجاء لثوابه .

وقل مثل ذلك في باقي الفروض ، في الزكاة ، والحج ، والصيام .

٢ - العادات

عدا الفروض الشرعية الخمسة ، يأتي المؤمن اعمالاً بشرية لا تخصي ، عليه ان يستوحى في القيام بها ايمانه ، ويهدف الى اخرته .

فالاكل ، مثلاً ، واجب ديني ، لانه ضروري لحفظ البدن ، على ان الاغراق فيه امر محذور ، لانه دافع للشهوة ، مثير للاهواء .

والزواج له فوائده وله آفاته . اما الفوائد فبقاء النسل ، ودفع

غوائل الشهوة ، وترويح النفس بالمباح ، وتدبير المنزل ، واجر القيام

باعباء الاسرة . واما الآفات فطلب المال الحرام ، والقصور عن احتمال

اذى النساء ، والاشتغال بالاهل عن الله . وعلى المؤمن اذاً ان يقدم على

الزواج ان زادت في حقه القوائد ، وان يحجم عنه ان زادت الآفات .

وكسب المال امر مباح ، على ان يسلك المؤمن الى ذلك السبل

المشروعة ، فيمتنع عن كل حرام في التجارة والعقود ، في البيع والاجارة

والشركة والقراض .

والدماع يكون مباحاً ومحظوراً . هو محظور ان يثر كامن الشهوات ،

وهو مباح لمن يستلذ الصوت الحسن ، او يستعمله طريقاً الى الوجد

الصوفي .

وكذا سائر الاعمال البشرية لا يقوم بها مؤمن الا اذا اتفقت وشرائع دينه وهدفت الى طاعة ربه .

٣ - الملاحظات

في رباعي العبادات والعادات تعرض الغزالي لما هو فرض على كل مؤمن ، واساس لكل كمال .
واما في رباعي المهلكات والمنجيات فقد تخطى ذلك ، فولج القلب يستقضي عيوبه وفضائله ، ويسلك به الى ذرى الكمال .

•

اما معرفة العيوب فيصل اليها المريد باسترشاد شيخ بصير ، او صديق متدين ، كما يكشفها على السنة اعدائه .

(١) وان الغزالي يهدد لذلك بكتاتين في عجائب القلب ، ورياضة النفس ، يحلل فيها نفسية الانسان ، وما يستطيعه من كمال ويمترضه من عقبات .
ان الانسان بقلبه . والقلب هو الروح ، او النفس ، او العقل ، اي تلك اللطيفة الروحانية ، المدركة للاشياء . وان القلب هو « العالم بالله » ، وهو المتقرب الى الله ، وهو العامل لله ، وهو الساعي الى الله ، وهو المكاشف بما عند الله ولديه « الاحياء ٣ : ص ٢)

وان القلب في الجسد كملك في مدينة ، يدير شؤون الجسد ، ويخضع لارادته جنود . وان جنود القلب حواس واعضاء ، واخم شهوة وغضب ، وخيال وفكرة وذاكرة ، « وانما افتقر القلب الى هذه الجنود ، من حيث افتقاره الى المركب والزياد لسفره ، الذي لاجله خلق ، وهو السفر الى الله . » (الاحياء ٣ : ص ٥)
وللقلب عمelan ، اكتساب علم ، وتحصيل كمال . اما العلم فيناله بتعلم بشري ، ويناله بالهام الهي . وان الهام لا يحصل الا بتطهير القلب : « القلوب كالاولان ، فاما دامت ممتلئة بالماء لا يدخلها الهواء . فالقلوب المشغولة بغير الله ، لا تدخلها المعرفة بجلال الله . » (الاحياء ٣ : ص ٧)

وان مبدأ الاعمال الخواطر ، ان دعت الى الخير كانت الهاماً صادراً عن ملاك ، وان دعت الى الشر كانت وسواساً صادراً عن الشيطان . وان القلب قابل ، على

وعيوب النفس هي : شهوة البطن ، وشهوة الجسد ، وآفات اللسان ، والغضب ، والحقد ، والحسد ، والبخل ، وحب الجاه ، والرياء ، والكبر والعجب ، والغرور .

يتعرض الغزالي لهذه العيوب واحداً واحداً ، فيحدد لك ماهيتها واسبابها ، ويبين لك كيف تروض النفس على معالجتها واستئصالها ، وما يجب ان قمارسه من تقارين ، وتقوم به من تأملات ، ويورد لك آيات من القرآن ، واحاديث منسوبة للنبي ، واقوالاً لمشاهير المتصوفة .

وانه لبحث طويل حقاً ، يضيق عنه مثل هذا الدرس ، ان نفصل لك ما قاله الغزالي في عيوب النفس عيباً عيباً . ولنعرض ، كمثال ، تحليله لشهوة البطن :

ان شهوة البطن ، في نظره ، اصل كل العيوب . بها اخرج آدم وجواء من الجنة ، ومنها تنبعث شهوة الذة الجسدية . ويتبع هاتين الشهوتين شهوة المال والجاه ، وسيلة التمتع بهما . ويتشعب عن طلب المال والجاه آفات كثيرة ، كالكبر والرياء ، كالحسد والحقد ، ومنبع كل ذلك البطن . وبعد ان يورد الغزالي احاديث كثيرة في فضيلة الجوع ، واقوالاً عن الانبياء والاولياء ، يعدد فوائد ، فاذا هي للبدن صحة ، وللعقل صفاً ، وعلى القناعة والصدق عون ، واذا بالجوع تكسر شهوات المعاصي ،

التساوي ، للالهام والوسواس ، متجاذب بين الاثنين ، « والتطارد بين جندي الملائكة والشياطين في معركة القلب دائم . . . واكثر القلوب قد فتحتها جنود الشياطين . » (الاحياء : ٣ : ص ٢١)

وان الشهوة والغضب ، وما يتشعب عنهما من حب الغنى ، وشهوة المأكول ، وطلب الرتبة ، والتعصب للمذهب ، لابواب الشيطان الى القلب . وان على الانسان ان يجاهد لكي يروض جسده وحواسه ، ويضبط شهوته وغضبه ، فيظهر قلبه ويصفو ويبلغ علماً وكالاً . وان رياضة النفس لامر واجب ، وان اصلاح الاخلاق لشيء ممكن .

ويسهل السهر والمواظبة على العبادة ، ويذكر الانسان بلاء الله وعذابه . وينتهي الغزالي الى كيفية رياضة المريد على الجوع ، فيتكلم عن كمية الطعام ، ونوعه ، وعن اوقات تناوله . على المريد ان يقلل من كمية الطعام ، فلا يأخذ اكثر مما يحتاج اليه لقيام جسده وبقاء قواه ، وليكن ذلك على التدريج ، لان من اعتاد الاكل الكثير ، وانتقل دفعة الى القليل ، لم يحتمله مزاجه . وعليه ان يتنعم عن شهية الطعام ، ولذة اللحوم ، كي لا يسكن الى نعيم الدنيا ، ويسعى وراء المعاصي . وان اقل ما يُطلب منه الاقتصار في اليوم على اكلة واحدة ، واكثر ما يطلب منه ان يطوى ثلاثة ايام . وان بعض سالكي الطريقة يطوون ثلاثين يوماً ، واربعين ، وخمسين .

ويحذر الغزالي المريد من الرياء ، من الامتناع عن الاكل مع الجماعة للاكل في الخلوة ، كما يحذره من خطر العجب ، وحب الاشتهار بالتعفف وفضيلة الجوع . وانه يكون حينذاك قد خالف شهوة الاكل ، واطاع شهوة الجاه ، وهذا كن هرب من عقرب ، وفزع الى حية . نكتفي بهذا المثل ، وندعوك الى مطالعة ما كتبه الغزالي في باقي عيوب النفس ، فانك واجد فيه نفعاً كثيراً .

٤ - المُنَاجَات

رأينا الى الآن ما نفخ الغزالي من روح دينية في فروض الشرع ، وآداب الحياة ، ثم رأينا كيف دعا الى طهارة القلب وصفائه برياضة النفس ومجاهدة الاهواء . وها هو يطفر بالصوفي الى اقصى الكمال ، الى عرض الفضائل او المقامات الروحية التي تنتهي به الى حب الله والفناء فيه .

هذه المقامات تسعة وهي : التوبة ، الصبر ، والشكر ، والخوف ،

والرجاء ، والفقر ، والزهدي ، والتوحيد ، والتوكل ، والمحبة .
 ينتظم كل مقام من ثلاثة امور : من علم ، وحال ، وفعل .
 اما العلم فمن شأن العقل ، به يعرف ما هو المقام ، وما الداعي الى طلبه ، وكيف يمكن الوصول اليه .

حتى اذا تمّ هذا العلم ، انبعثت في النفس عاطفة ، وثار في القلب شعور ، اي مالت النفس الى ما رآه العقل من خير . وهذا هو الحال .

ومتى حصل للانسان العلم والحال ، نتج عنها ارادة وقصد ، فكان الفعل .
 اذا العلم يولد الحال ، والحال يدفع الى العمل ، « والاول موجب للثاني ، والثاني موجب للثالث ، ايجاباً اقتضاه اطراد سنة الله . »^(١)

خذ مثلاً ، التوبة . فالعقل يرى عظم ضرر الذنوب ، وكونها حجاباً يفصله عن الله محبوبه . والقلب يتألم لفوات المحبوب ، ويندم على ما صدر منه . والارادة تعزم على ترك كل ذنب في الحال والاستقبال . فما رآه العقل علم ، والندم حال ، وقصد ترك الذنوب فعل^(٢) .



وزدد هنا ما قلناه ، حين تكلمنا عن عيوب النفس ، من ان هذا الدرس يضيق عن بحث المقامات الصوفية مقاماً مقاماً . على اننا نورد مثلين ، فنوجز تحليله للتوكل ، ثم المحبة .

(١) الاحياء : ٤ : ص ٣

(٢) وان الغزالي يرى امكان التسلسل المعاكس ، اي ان يثير الفعل الشعور ، وان يقوي الشعور ثقة العقل . قال الغزالي : « ان المواظبة على الطاعات لها تأثير في تأكيد طمأنينة النفس الى الاعتقاد التقليدي ، ورسوخه في النفس . وهذا امر لا يعرفه الا من سبر احوال نفسه ، وراقبها في وقت المواظبة على الطاعة ، وفي وقت الفترة ، ولاحظ تفاوت الحال في باطنه . . . فان من يعتقد الرحمة في قلبه على يقيم ، فان اقدم على مسح رأسه ، وتفقد امره ، صادف في قلبه ، عند ممارسة العمل ، بموجب الرحمة ، زيادة تأكيد كيد في الرحمة . ومن يتواضع بقلبه لغيره ، فاذا عمل بوجبه ،

التوكل هو اعتماد القلب على الوكيل ، وله في القوة والضعف ثلاث درجات : الاولى ان تتكل على الله اتكالك على الوكيل . الثانية ان تتكل عليه اتكال الطفل على امه ، الذي لا يعرف غيرها ولا يفزع الى سواها . والثالثة ان تكون بين يدي الله كلميت بين يدي الغاسل ، لا تفزع اليه ولا تسأله ، لانك تعرف انه بجاجاتك اعلم ، وعلى قضاءها احرص .

والحجة هي غاية المقامات وذروتها . رأى بعض العلماء ان محبة الله غير ممكنة ، فخالفوا بذلك شواهد الشرع وشواهد العقل . ان الشرع قال بمحبة الله ، بدليل الآية : « يحبهم ويحبونه » ، والآية الاخرى : « والذين آمنوا اشد حبا لله . » اما العقل فيرى ان اسباب الحب خمسة : نجب وجودنا وبقاؤنا ، ونجب من يحسن الينا في ما يعود الى هذا الوجود وبقائه ، ونجب من يحسن الى الناس ، ونجب كل جميل في ذاته ، ونجب من بيننا وبينه مناسبة خفية في الباطن . والحال ان هذه الصفات قد اجتمعت في الله ، وبلغت فيه اقصى درجات الكمال ، لان منه كل

ساجداً له ، او مقبلاً يده ، ازداد التعظيم والتواضع في قلبه . » (الاقتصاد في الاعتقاد ص ١٠٢)

واستناداً الى هذا المبدأ ، يرى الغزالي ان ما يقوم به الصوفيون من حركات خارجية مفيد لاثارة الوجد ، فالوصول الى مشاهدة الله . قال الغزالي ، اثناء كلامه عن آداب السماع : « ان رقص او تباكي ، فهو مباح ، اذا لم يقصد به المراآة ، لان التباكي استجلاب للحزن ، والرقص سبب في تحريك السرور . » وقل مثل ذلك في الذكر والسماع ، فان مراجعة اسم الله او احدى صفاته ، وان الغناء بشعر صوفي او سماعه ، لافعال جسدية تمهد لحالة الوجد ، وتساعد عليه .

واذا الشعور مسبب بين سبيين ، هما العلم والعمل . واذا احب الله ، هدف الصوفي الاقصى ، هو رهن ايمان ونقى ، رهن تأمل روحي ورياضة نفس ، رهن تفكير في صفاء القلب ، وعمل على ايجاد هذا الصفاء . وقد ألح الغزالي كثيراً على الجمع بين العلم والعمل .

وجود ، وبه كل بقاء ، ومنه كل احسان ، وفيه اكل جمال ، وبينه وبين الانسان مناسبة باطنة . فحب الله اذاً ممكن ، والله احق كائن بالحب .

نكتفي بهذين المثلين ، وندعوك الى مطالعة ما كتبه الغزالي في مقامات الكمال ، لترى ما عنده من غنى فكري ، ومن تحليل نفسي دقيق .

٥

على انه من الضروري ان نرى ما يلجأ اليه الصوفي من تمارين صوفية ، وما ينتهي اليه في ذروة صعوده .

اما اهم التمارين الصوفية فهي :

١ - الذكر : هو الحلو بالنفس ، وتفريغ القلب ، والاقبال على الله بمراجعة اسمه ، او احدى صفاته ، باللسان الى ان يكل ، وبالقلب الى ان يحس كل لفظ ، ولا يبقى سوى المعنى .

٢ - السماع : هو الغناء بشعر يحرك في القلب حب الله ، والقرب منه .

٣ - الوجد : هو ما يتبع الذكر او السماع من حالات نفسية ، ومن تحريك للظاهر بالرقص والتصفيق ، او بالانين والبكاء . وقد يتبع ذلك تمزيق الثياب . ويؤثر الغزالي ضبط النفس ، والامساك عن كل حركة خارجية ، اذما يعذر من غلب عليه السكر ، فرقص ، وبكى ، ومزق ثوبه .

اما ما ينتهي اليه الصوفي في وجدته ، فاثنتان :

١ - الفناء في الله : الصوفي يشاهد الله ، فيتجلى له من لطائفه ما لا يوصف ، ويغيب هو عن نفسه ، وعن كل ما يحيط به ، وكأنه والله

واحد . على ان هذه الحالة لا تتجاوز شهادة الله ، والقرب منه ، وكل قول بالحلول خطأ . وهكذا شجب الغزالي من الصوفية ما لاجله اضطهدت السنة كبار المتصوفين كالبسطامي ، والحلاج وغيرهما . ولاجل ذلك ايضاً شجب النطق باقوال الشطح - من مثل انا الحق ، او سبحانه ما اعظم شأنى - وان عذر من غلب عليه السكر ، فافقده عقله ، وانطقه بها .

٢ - الالهام الصوفي : القلب كالمرآة ، ان صفاء من كل عيب ، وبلغ الله بالحب ، انعكست فيه صور اللوح المحفوظ - وهي صور كل موجود - فرأى كل شيء ، وعرف الماضي والحاضر والمستقبل . والقلب كحوض محفور . انت تستطيع ان تملأ الحوض بماء تسوقه اليه من الخارج ، او بماء اصفى وادوم واغزر تغبّره بالخمر في اسفل الحوض . وهكذا تساق العلوم الى القلب بواسطة انهار الحواس ، او تنفجر في اعماقه الهاماً بواسطة الخلاوة والغرلة وتطهير القلب . والالهام يغني عن كل علم شرعي او عقلي ، ويولي معارف اخرى ايضاً .

فقلب الصوفي اذاً هو ذاك الاناء المصطفى الذي نقاه الله من الارجاس ، وزانه بالاصباغ والالوان ، ليسكب فيه نعمة حبه ، ويتجلى له في مبهاته ، ويعكس فيه لآئى نوره .

والصوفي هو ذاك الانسان المختار الذي جاز حدود النوع ، ونهل من منبع الحياة ، فاذا هو يحس ما لا يحس الناس ، ويرى ما لا يرون ، واذا هو دفع حب تغمر مجاريه النفوس ، وسيليل الى الحق يهتدي الناس بهديه .

وان الكمال الصوفي لذروة ما وصل اليه الانسان ، وخير ما يلجأ اليه الناس لينجوا من عبودية الالهوا ، وينعموا باسنى جمال واصفى حق .

حكم عام

نشأ الغزالي على الاسلام ، فوعى عقائده ، ومارس فروضه . وتربى الغزالي على يد والد تقي ووصي صوفي ، ثم عاش في كنف وزير يشجع المتصوفين . وقرأ الغزالي كتب الفلاسفة ، ورأى لهم في الاسلام نظريات وارا . وعرضت له في عقله شبهات ، وفي ايمانه شكوك . فكيف لاءم الغزالي بين كل هذه العناصر ، والى م انتهى ؟ هذا هو السؤال الذي اعايا اكثر من باحث ، واليك ما نراه :

١ - نشأ الغزالي مسلماً مؤمناً ، لا بل ولدأ تقياً . على انه ايمان ما سبقه بحث ، وتقوى ما تغلبت على عقبات .

٢ - ثم كان الشباب ، وكان التفكير بصحة الايمان الموروث ، ونفع العبادة والصلاة ، وبدأ الريب يتسرب الى العقل ، والفتور يدب الى القلب . وقد دامت هذه الحالة زمناً ، والغزالي حائر ، لا هو ذاك الحدث المؤمن التقي ، ولا هو الكافر الذي خلع كل ايمان . ولعل ريبه هذا بدأ في ظل امام الحرمين .

٣ - وعين الغزالي استاذاً في بغداد ، وزاد تفكيره في صحة ما يعلم من دين ، واقبل يطالع تأليف الفلاسفة ، فبلغت شكوكه الذروة ، وكاد يخلع كل ايمان .

٤ - على ان مطالعات صوفية افافت في اعماقه شعوراً دينياً هاجماً ،

ومرضاً المّ به ضخم لديه فكرة الآخرة وخوفه من سوء المصير ، فكان ما وصف لنا في المتخذ من صراع داخلي عنيف ، ومن تردد بين شهوات الدنيا ودواعي الآخرة .

٥ - وقد تغلب في الواقع الشعور الديني ، وبدأ التصوف ذروة كمال ، فترك الغزالي بغداد ، ومضى زاهداً عابداً متصوفاً .

٦ - على ان الغزالي ما كان بالقلب الذي يستقر ، ولا بالعقل الذي يطمئن .

لم يستقر قلبه على شعور ديني : بدأ ولدأً تقياً ، ثم فتر واهمل ، ثم اقتلعه من وطنه حب جارف ، ثم عاوده شيء من الفتور فعاد به الى اهله يعني بضرورات العيش ، وبنارس ثانية التعليم . وهذا التردد في الشعور الديني من ميزات القلوب الحساسة ، التي طغا فيها الاحساس على العمل ، والتأمل النفسي الباطني على الجهاد في معترك الحياة .

ولم يطمئن عقله الى اعتقاد : بدأ سنياً اشعرياً ، ثم تردد وشك ، ثم عاوده ايمان فيه من اشعريته الاولى ، وفيه من اقوال المتصوفين بالكشف والالهام ، وفيه من اراء الفلاسفة . هو عقل ذكي يطمح الى فهم كل رأي ، وهو عقل اختياري يحني ما يبدو له صالحاً في كل مذهب .

٧ - على ان الغزالي كان يحرص على مجاراة البيئة ، ويجزع من ان يتهم ، فظلت عقائد السنة عقائد كتبه ، يعرضها في كتب الكلام ، ويدافع عنها ضد باطني وفيلسوف ، ويطهر بها التصوف من اباحية وحلول . لهذا اخفي شكوكه الى ان زالت ، وادع تأليفه ما لم يكن يثق به ، وضمن باراءه فما نشرها في الناس .

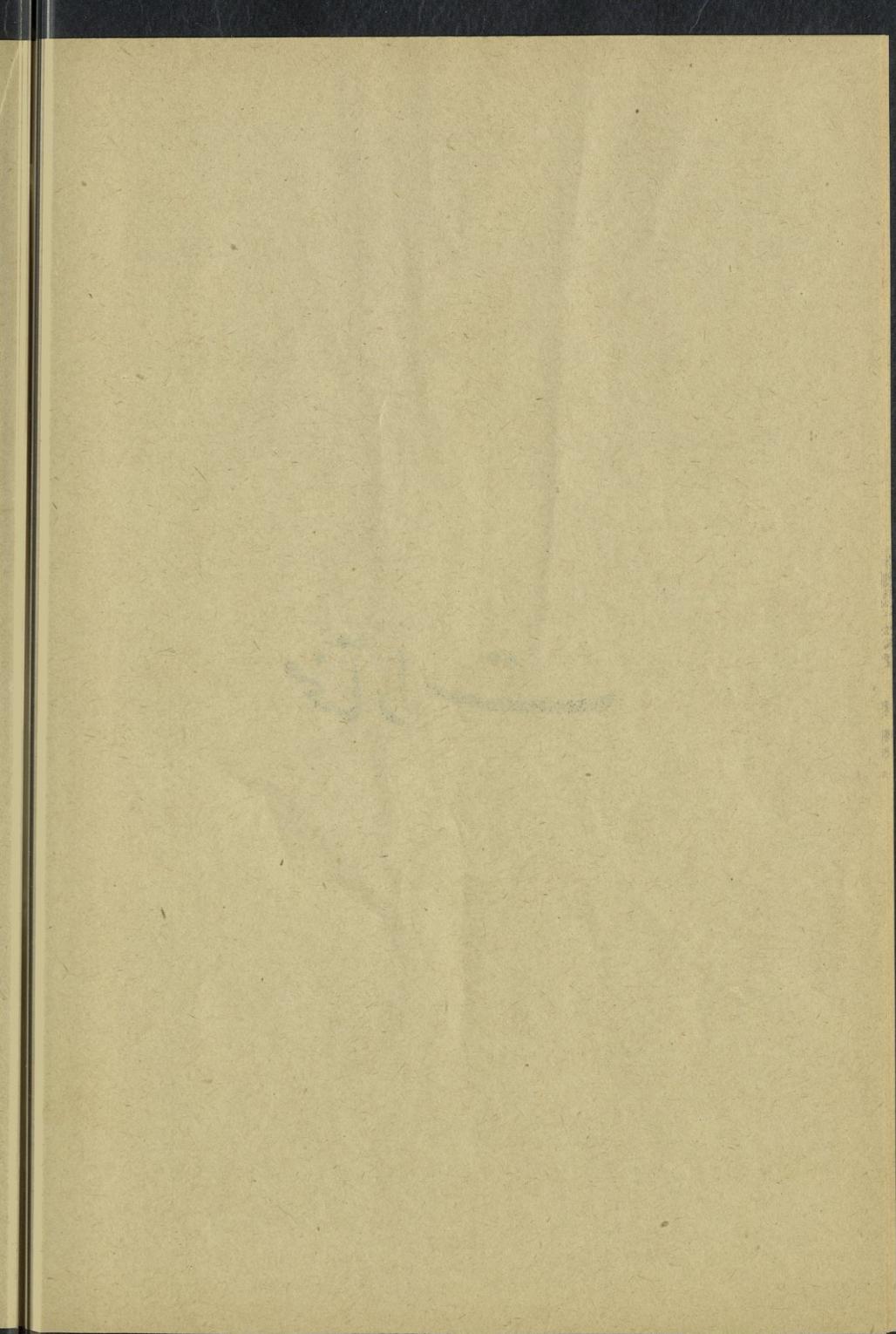
٨ - وان هذا التردد عند الغزالي ، هذا التنقل من حال الى حال ،

وهذا التناقض بين ما كان يعلم رسمياً وبين ما كان يعتقد في السريّة ،
 هما ما لبس على الناس حقيقة اعتقاده ، ودفع الباحثين الى الغلو اعجاباً
 او اتهاماً .

قال فيخت : « فلسفتنا انما هي تاريخ قلبنا . » وان فلسفة الغزالي
 كانت تاريخ قلبه ، تاريخ قلب قلق يتصنع الاستقرار ، وقلب غني متطلع
 لا يوصد بابه امام رأي او شعور .



مختارات



بين العقل والنقل

الحمد لله ، الذي اجتبى من صفوة عبادة عصابة الحق واهل السنة ، ...
وعمر افئدتهم بانوار اليقين ، حتى اهتدوا بها الى اسرار ما انزله على لسان
نبيه ، ... واطلعوا على طريق التلفيق^(١) بين مقتضيات الشرائع وموجبات
العقول ، وتحققوا ان لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول ، وعرفوا
ان من ظن من الحشوية وجوب الجحود على التقليد واتباع الظواهر ،
ما اتوا به الا من ضعف العقول وقلة البصائر ، وان من تغفل من الفلاسفة
وغلاة المعتزلة في تصرف العقل حتى صادموا به قواطع الشرع ، ما اتوا
به الا من خبث الضمائر . فيل اولئك الى التفريط ، وميل هؤلاء الى
الافراط ، وكلاهما بعيد عن الحزم والاحتياط ، بل الواجب المحتوم في
قواعد الاعتقاد ملازمة الاقتصاد ، والاعتماد على الصراط المستقيم ، فكلما
طُرِفِي قصد الامور ذميم .

(الاقتصاد في الاعتقاد : ص ٢)

الناس والحق

ان الناس اربع فرق :
الفرقة الاولى : آمنتم بالله ، وصدقت رسوله ، واعتقدت الحق واضرته ،
واشغلت ايمانكم بعبادة واما بصناعة . فهؤلاء ينبغي ان يتركوا وما هم عليه ،
ولا تحرك عقائدهم ...

(١) لَفَّقَ الشَّقَتَيْنِ : ضمّ احدهما الى الاخرى فخطاها . ولعل الكلمة في الاصل
« التوفيق » .

الفرقة الثانية : طائفة مالت عن اعتقاد الحق ، كالكفرة والمبتدعة . فالجاني الغليظ منهم ، الضعيف العقل ، الجامد على التقليد ، المستري على الباطل من مبتدأ الشؤء الى كبر السن ، لا ينفع معه الا السوط والسيف ، فاكثر الكفرة اسلعوا تحت ظلال السيوف ، اذ يفعل الله بالسيف والسنان ما لا يفعل بالبرهان واللسان^(١) . . .

الفرقة الثالثة : طائفة اعتقدوا الحق تقليداً وسماً ، ولكن خصوا في الفطرة بذكاء وفطنة ، فتنبها من انفسهم لاشكالات تشككهم في عقائدهم ، وزلزلت عليهم طمأنينتهم . . . فهؤلاء يجب التلطف بهم في معالجتهم ، باعادة طمأنينتهم ، واماطة شكوكهم ، بما امكن من الكلام المقنع ، المقبول عندهم . . .

الفرقة الرابعة : طائفة من اهل الضلال ، يتفرس فيهم مخائل الذكاء والفطنة ، ويتوقع منهم قبول الحق بما اعتراهم في عقائدهم من الريبة ، او بما يلين قلوبهم لقبول التشكيك بالجملة والفطرة . فهؤلاء يجب التلطف بهم في استمالتهم الى الحق ، وارشادهم الى الاعتقاد الصحيح ، لا في معرض الحاجة والتعصب ، فان ذلك يزيد في دواعي الضلال ، ويهيئ بواعث التمادي والاصرار . . . والمجادلة والمعاندة داء محض لا دواء له ، فليتحرز المتدين منه جهده ، وليترك الحقد والضعينة ، وينظر الى كافة خلق الله بعين الرحمة ، وليستعن بالرفق والالطف في ارشاد من ضل . . .

(الاقتصاد : ص ٦-٨)

(١) هذا رأي من الغزالي غريب ، فان عقلاً لا يفعل فيه البرهان لغلاظته ، كيف يفعل فيه السيف ، فيولد اقتناعاً ، ويوجد إيماناً ؟ ان السيف قد ينطق اللسان بما لا يؤمن به القلب ، وما هذا من الدين في شيء ، ان هذا الاكذب ورياء !

الاصلاح غير واجب

ندعي انه لا يجب عليه (على الله) رعاية الاصلاح لعباده ، بل له ان يفعل ما يشاء . ويحكم بما يريد ، خلافاً للمعتزلة ...

انا نفرض ثلاثة اطفال ، مات احدهم وهو مسلم في الصبا ، وبلغ الآخر واسلم ومات مسلماً بالغاً ، وبلغ الثالث كافراً ومات على الكفر . فان العدل عندهم ان يخلد الكافر البالغ في النار ، وان يكون للبالغ المسلم في الجنة رتبة فوق رتبة الصبي المسلم . فاذا قال الصبي المسلم : يا رب ، لم حططت رتبتي عن رتبته ؟ فيقول : لانه بلغ فاطعني ، وانت لم تطعني بالعبادات بعد البلوغ . فيقول : يا رب ، لاني امتي قبل البلوغ ، فكان صلاحني في ان تمتدني بالحياة حتى ابلغ ، فاطيع ، فانال رتبته ، فلم حرمتني هذه الرتبة ابد الابدين ، وكنت قادراً على ان توصلني لها ؟ فلا يكون له جواب الا ان يقول : علمت انك لو بلغت لعصيت وما اطعت ، وتعرضت لعقابي وسخطي ، فرأيت هذه الرتبة النازلة اولى بك ، واصلاح لك من العقوبة . فينادي الكافر البالغ من الهاوية ، ويقول : يا رب ، أو ما علمت اني اذا بلغت كفرت ؟ فلو امتني في الصبا ، وانزلتني في تلك المنزل النازلة ، اكان احب الي من تخليد النار ، واصلاح لي ، فلم احييتني ، وكان الموت خيراً لي ؟ فلا يبقى له جواب البتة ...

ان الاصلاح للعباد كلهم ليس بواجب ، ولا هو موجود .

(الاقتصاد في الاعتقاد : ٨٣-٨٤)

المعاد

لقد كفر الغزالي الفلاسفة لانكارهم المعاد الجسماني . واليك بعض ما جاء للغزالي في وصف المعاد ، وجملة في المعاد الجسماني :

تفكر في اهل الجنة ، وفي وجوههم نضرة النعيم . يسقون من رحيق مختوم ، جالسين على منابر الياقوت الاحمر ، في خيام من اللؤلؤ الرطب الابيض ، فيها بسط من العبقري^١ الاخضر ، متكئين على ارائك منصوبة على اطراف انهار مطردة بالخمر والعسل ، محفوفة بالغلمان والولدان ، مزينة بالخور العين ، من الخيرات الحسان ، كانهن الياقوت والمرجان ، لم يطمئن انس قبلهم ولا جان . يشين في درجات الجنان ، اذا اختالت احداهن في مشيها ، حمل اعطافها سبعون الفا من الولدان ، عليها من طرائف الحرير الابيض ما تتجيز فيه الابصار . مكملات بالتيجان ، المرصعة باللؤلؤ والمرجان . شكولات ، غنجات ، عطرات ، آمانات من الهرم والبؤس ، مقصورات في الخيام ، في قصور من الياقوت ، بنيت وسط روضات الجنان . قاصرات الطرف ، عين .

ثم يطاف عليهم وعليهن باكواب واباريق ، وكأس من معين بيضاء ، لذة للشاربين . ويطوف عليهم خدام وولدان ، كامثال اللؤلؤ المكنون ، جزاء بما كانوا يعملون .

في مقام امين ، في جنات وعيون ، في جنات ونهر ، في مقعد صدق ، عند مليك مقتدر ، ينظرون فيها الى وجه الملك الكريم ، وقد اشرفت في وجوههم نضرة النعيم ، لا يرهقهم قتر ولا ذلة ، بل عباد مكرمون ، وبانواع التحف من ربهم يتعاهدون ، فهم فيما اشتبهت انفسهم خالدون ، لا يحافون فيها ولا يحزنون .

(١) نوع من البسط الفاخرة .

وهم من رَيْبِ المُنُونِ آمَنُونَ ، فهم فيها يَتَنَعَمُونَ ، ويَأْكُلُونَ من اطعمتها ، ويشربون من انهارها لبناً وخمراً ، وعسلاً ، في انهار اراضيها من فضة ، وحصباءها مرجان ، وعلى ارضِ تَرايِها مسك اذفر^(١) ، ونباتها زَعْفَرَان . ويمطرون من سحب ، فيها من ماء النِّسْرِين^(٢) ، على كُثْبَان الكافور . ويؤتون باكواب - واي اكواب ! - باكواب من فضة ، مرصعة بالدر والياقوت والمرجان : كُوب فيه من الرحيق المختوم ، ممزوج به السلسبيل العذب ! كُوب يشرق نوره ، من صفاء جوهره ، يبدو الشراب من ورائه برقته وحمرة ، لم يصنعه آدمي فيقصر في تسوية صنعته ، وتحسين صناعته ، في كف خادم يحكي ضياء وجهه الشمس في اشراقها ولكن من اين للشمس مثل حلاوة صورته ، وحسن اصداغه ، وملاحه احداقه ؟ ...

وسئل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، عن قوله : « ومساكن طيبة في جنات عدن » ، قال : قصور من لؤلؤ ، في كل قصر سبعون داراً من ياقوت احمر ، في كل دار سبعون بيتاً من زمرد اخضر ، في كل بيت سرير ، على كل سرير سبعون فراشاً من كل لون ، على كل فراش زوجة من الحور العين ، في كل بيت سبعون مائدة ، على كل مائدة سبعون لوناً من الطعام ، في كل بيت سبعون وصيفة ، ويعطى المؤمن في كل غداة ، يعني من القوة ، ما يأتي على ذلك اجمع

وقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : ان الرجل من اهل الجنة ليتزوج خمسمائة حورا ، واربعة آلاف بكر ، وثمانية آلاف ثيب ، يعانق كل واحدة منهم مقدار عمره في الدنيا

قال الله تعالى : « للذين احسنوا الحسنی ، وزيادة ا » . وهذه الزيادة

(١) اذفر : طيب الرائحة .

(٢) ورد ابيض عطر الرائحة .

هي النظر الى وجه الله تعالى ، وهي اللذة الكبرى ، التي يُنسى فيها نعيم اهل الجنة... قال جرير بن عبد الله البجلي : كنا جلوساً عند رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فرأى القمر ليلة البدر ، فقال : انكم ترون ربكم ، كما ترون هذا القمر ، لا تُضامون في رؤيته!... وليس لسرور اهل الجنة ، عند سعادة اللقاء ، منتهى . بل لا نسبة لشيء من لذات الجنة الى لذة اللقاء . وقد اوجزنا في الكلام هنا ، لما فصلناه في كتاب المحبة والشوق والرضى . فلا ينبغي ان تكون هممة العبد من الجنة بشيء . سوى لقاء المولى ، واما سائر نعيم الجنة ، فانه يشارك فيه البهيمة المسرحة في المرعى^(١) !

(الاحياء : ربع المنجيات : كتاب الموت وما بعده)

ابها الولد

ايها الولد : النصيحة سهلة ، والمشكل قبولها ، لانها في مذاق متبعي الهوى مرة ، اذ المناهي محبوبة في قلوبهم ، وعلى الخصوص لمن كان طالب العلم الرسمي ، ومشتغلاً في فضل النفس ، ومناقب الدنيا . فانه يحسب ان العلم ، المجرد له ، ستكون نجاته وخلاصه فيه ، وانه مستغن عن العمل ، وهذا اعتقاد الفلاسفة . سبحانه الله العظيم ، لا يعلم هذا المغرور انه حين حصل العلم ، اذا لم يعمل به تكون الحجة عليه آكد ، كما قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : اشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لا ينفعه الله بعلمه . وروي ان الجنيد ، قدس الله سره ، روي في المنام بعد موته ، فقيل له : ما الخبر ، يا ابا قاسم ؟ قال : طاحت تلك

(١) ألا يكاد يعود الغزالي هنا الى رأي الفلاسفة ، الذين كفّروا ؟ !

العبارات ، وفنيت تلك الاشارات ، وما نفعنا الا ركيعات ركعناها في
جوف الليل !



ايها الولد : كم من ليالٍ احييتها بتكرار العلم ، ومطالعة الكتب ،
وحرمت على نفسك النوم . لا اعلم ما كان الباعث فيه . ان كان نيل
غرض الدنيا ، وجذب حطامها ، وتحصيل مناصبها ، والمباهاة على الاقران
والامثال ، فويل لك ثم ويل لك . وان كان قصدك فيه احياء شريعة
النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وتهذيب اخلاقك ، وكسر النفس الامارة
بالسوء فطوبى لك ثم طوبى لك . ولقد صدق من قال شعراً :

سهر العيون لغير وجهك ضائع وبكاؤهن لغير ففدك باطل



ايها الولد : عش ما شئت ، فانك ميت . واجب ما شئت ، فانك
مفارقة واعمل ما شئت فانك مجزي به .



ايها الولد : العلم بلا عمل جنون ، والعمل بغير علم لا يكون .
واعلم ان العلم لا يبعدك اليوم عن المعاصي ، ولا يحملك على الطاعة ،
ولن يبعدك غداً عن نار جهنم . واذا لم تعمل اليوم ، ولم تدارك الايام
الماضية ، تقول غداً يوم القيامة : فارجعنا فعمل صالحاً . فيقال : يا احمق ،
انت من هناك تجي . !



ايها الولد : ينبغي لك ان يكون قولك وفعلك موافقاً للشرع ، اذ
العلم والعمل بلا اقتداء الشرع ضلالة . وينبغي لك ان لا تغتر بالشطح
وطامات الصوفية ، لان سلوك هذا الطريق يكون بالمجاهدة ، وقطع
شهوة النفس ، وقتل هواها بسيف الرياضة ، لا بالطامات والترهات ...

واعلم ان بعض مسائلك ، التي سألتني عنها ، لا يستقيم جوابها بالكتابة والقول ، ان تبلغ تلك الحالة تعرف ما هي ، والا فعلمها من المستحيلات ، لانها ذوقية . وكل ما يكون ذوقياً ، لا يستقيم وصفه بالقول ، كحلاوة الحلو ، ومرارة المر ، لا يعرف الا بالذوق ...

واما البعض الذي يستقيم له الجواب ، فقد ذكرناه في احياء العلوم وغيره ونذكر ههنا نبذاً منه ، ونشير اليه فنقول : قد وجب على السالك اربعة امور :

- الامر الاول : اعتقاد صحيح ، لا يكون فيه بدعة .
- والثاني : توبة نصوح ، لا يرجع بعدها الى الزلة .
- والثالث : استرضاء الخصوم ، حتى لا يبقى لاحد عليك حق .
- الرابع : تحصيل علم الشريعة ، قدر ما تؤدى به اوامر الله تعالى ، ثم من علوم الاخرة ما تكون به النجاة ...



ايها الولد : ... ان حاتم الاصم كان من اصحاب الشقيق البلخي ، رحمة الله عليها . فسأله يوماً قال : صاحبتني منذ ثلاثين سنة ، ما حصلت فيها ؟ قال : حصلت ثمانى فوائد من العلم ... :

الفائدة الاولى : اني نظرت الى الخلق ، رأيت لكل منهم محبوباً ومعشوقاً ، يحبه ويعشقه . وبعض ذلك المحبوب يصاحبه الى مرض الموت . وبعضه الى شفير الهاوية . ثم يرجع كله ، ويتركه فريداً وحيداً ، ولا يدخل معه في قبره منهم احد . فتفكرت وقلت : افضل محبوب المرء ما يدخل في قبره ، ويؤانس فيه ، فما وجدته غير الاعمال الصالحة ، فاحذتها محبوباً لي ، لتكون سراجاً لي في قبري ، وتؤانسني فيه ، ولا تتركني فريداً .

الفائدة الثانية : اني رأيت الخلق يقتدون باهوائهم ، ويبادرون الى

مرادات انفسهم ، فتأملت قوله تعالى : « واما من خاف مقام ربه ، ونهى النفس عن الهوى ، فان الجنة هي المأوى » ، وتيقنت ان القرآن حق صادق ، فبادرت الى خلاف نفسي ، وتشمرت ببجاعتها ، وما متعتها بهواها ، حتي رضيت بطاعة الله ، سبحانه وتعالى ، وانقادت .

الفائدة الثالثة : اني رأيت كل واحد من الناس يسعى في جمع حطام الدنيا ، ثم يمسكه ، قابضاً يده عليه ، فتأملت في قوله تعالى : « ما عندكم ينفد ، وما عند الله باق » ، فبذلت محصولي من الدنيا لوجه الله تعالى ، وففرقته بين المساكين ، ليكون ذخراً لي عند الله تعالى .

الفائدة الرابعة : اني رأيت بعض الخاق ظن شرفه وعزه في كثرة الاقوام والعشائر ، فاغتر بهم . وزعم آخرون انه في ثروة الاموال ، وكثرة الاولاد ، فافتخروا بها . وحسب بعضهم الشرف والعز في عصب اموال الناس ، وظلهم ، وسفك دمائهم . واعدت طائفة انه في اتلاف المال واسرافه وتبذيره . وتأملت في قوله تعالى : « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » ، فاخترت التقوى . . .

الفائدة الخامسة : اني رأيت الناس يذم بعضهم بعضاً ، ويغتاب بعضهم بعضاً ، فوجدت ذلك من الحسد في المال والجاه والعلم . فتأملت في قوله تعالى : « نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا » ، فعلمت ان القسمة كانت من الله تعالى في الازل ، فما حسدت احداً ، ورضيت بقسمة الله تعالى .

الفائدة السادسة : اني رأيت الناس يعادي بعضهم بعضاً ، لغرض وسبب ، فتأملت قوله تعالى : « ان الشيطان لكم عدو ، فاتخذوه عدواً » ، فعلمت انه لا تجوز عداوة احد غير الشيطان .

الفائدة السابعة : اني رأيت كل احد يسعى بمجد ، ويجهد بمبالغة لطلب القوت والمعاش ، بحيث يقع به في شبهة وحرام ، وينذل نفسه ،

وينقص قدره . فتأملت في قوله تعالى : « وما من دابة في الارض ، الا على الله رزقها » ، فعلمت ان رزقي على الله تعالى ، وقد ضمنه ، فاشتغلت بعبادته ، وقطعت طمعي عن سواه .

الفائدة الثامنة : اني رأيت كل واحد معتمداً على شيء مخلوق ، بعضهم الى الدينار والدرهم ، وبعضهم الى المال والملك ، وبعضهم الى الحرفة والصناعة ، وبعضهم الى مخلوق مثله . فتأملت في قوله تعالى : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، ان الله بالغ امره ، قد جعل الله لكل شيء قدراً » ، فتوكلت على الله تعالى ، فهو حسبي ، ونعم الوكيل .
فقال شقيق : وفقك الله تعالى ! اني قد نظرت التوراة ، والانجيل ، والزبور ، والفرقان ، فوجدت الكتب الاربعة تدور على هذه الفوائد الثمانية ، فمن عمل بها ، كان عاملاً بهذه الكتب الاربعة .



ايها الولد : ... انه ينبغي للسالك شيخ مرشد مرب ، ليخرج الاخلاق السيئة منه بتربيته ، ويجعل مكانها خلقاً حسناً . ومعنى التربية يشبه فعل الفلاح ، الذي يخرج الشوك ، ويخرج النباتات الاجنبية من بين الزرع ، ليحسن نباته ، ويكمل ريعه ...



ايها الولد : اني انصحك بثمانية اشياء ، اقبلها مني لتسلا يكون علمك خصماً عليك يوم القيامة ، تعمل منها اربعة ، وتدع منها اربعة .
اما اللواتي تدع :

احدها ان لا تنظر احداً في مسألة ، ما استطعت ، لان فيها آفات كثيرة ، فاتها اكبر من نفعها ، اذ هي منبع كل خلق ذميم ، كالرياء والحسد والكبر والحقد والعداوة والمباهاة وغيرها . نعم ، لو وقع مسألة بينك

وبين شخص او قوم ، وكانت ارادتك فيها ان تظهر الحق ، ولا يضيع ،
جاز البحث ...

والثاني مما تدع هو ان تحذر من ان تكون واعظاً ومذكراً ، لان
فيه آفة كثيرة ، الا ان تعمل بما تقول اولاً ، ثم تعظ به الناس ...

والثالث مما تدع ان لا تحالط الامراء والسلاطين ، ولا تراهم ، لان
رؤيتهم ومجالستهم ومخالطتهم آفة عظيمة . ولو ابتليت بهم ، دع عنك
مدحهم وثناهم ، لان الله تعالى يغضب اذا مدح الفاسق والظالم . ومن
دعا لطول بقائهم ، فقد احب ان يعصى الله في ارضه .

والرابع مما تدع ان لا تقبل شيئاً من عطاء الامراء وهداياهم ، وان
علمت انها من الحلال ، لان الطمع منهم يفسد الدين ، لانه يتولد منه
المداينة ، ومراعاة جانبهم ، والموافقة في ظلمهم ...

واما الاربعة التي ينبغي لك ان تفعلها :

فالاول ان تجعل معاملتك مع الله تعالى ، بحيث لو عامل معك بها
عبدك ترضى بها منه ، ولا يضيق خاطرك عليه ، ولا تغضب . والذي لا
ترضى لنفسك من عبدك المجازي ، فلا ترض ايضاً لله تعالى ، وهو سيدك
الحقيقي .

والثاني : كلما علمت بالناس ، اجعله كما ترضى لنفسك منهم ، لانه لا
يكمل ايمان عبد ، حتى يحب لساوئ الناس ما يحب لنفسه .

والثالث : اذا قرأت العلم ، او طالعته ، ينبغي ان يكون علمك يصلح
قلبك ، ويزكي نفسك ، كما لو علمت ان عمرك ما يبقى غير اسبوع ...

ولا يمر على عبد يوم وليلة الا ويعلم ان يكون موته فيها ...
والرابع : ان لا تجمع من الدنيا اكثر من كفاية سنة .

◊

ايها الولد : اني كتبت في هذا الفصل ملتزماتك ، فينبغي لك ان

تعمل بها ، ولا تنساني فيه من ان تذكرني في صالح دعائك ... وقرأ
هذا الدعاء في اوقائك ، خصوصاً اعقاب صلواتك :

اللهم ، اني اسألك من النعمة تمامها ، ومن العصمة دوامها ، ومن
الرحمة شمولها ، ومن العافية حصولها ، ومن العيش ارغده ، ومن العمر
اسعده ، ومن الاحسان اتمه ، ومن الانعام اعته ، ومن الفضل اعذبه ،
ومن اللطف اقربه . اللهم ، كن لنا ولا تكن علينا . اللهم ، اختم بالسعادة
آجالنا ، وحقق بالزيادة آمالنا ، واقرن بالعافية غدونا وآصالنا ، واجعل الى
رحمتك مصيرنا ومآلنا ، واصب سجال عفوك على ذنوبنا ، ومن علينا
باصلاح عيوبنا ، واجعل التقوى زادنا ، وفي دينك اجتهدنا ، وعليك
توكلنا واعتمادنا . اللهم ، ثبتنا على نهج الاستقامة ، واعذنا في الدنيا من
موجبات الندامة يوم القيامة ، وخفف عنا ثقل الاوزار ، وارزقنا عيشة
الابرار ، واكفنا واصرف عنا شر الاشرار ، واعتق رقابنا ورقاب آبائنا
وامهاتنا واخواننا واخواتنا من النار ، برحمتك يا عزيز يا غفار ، يا كريم يا
ستار ، يا عليم يا جبار ، يا الله يا الله يا الله ، برحمتك يا ارحم الراحمين .

آداب المعلم والمعلم

اما المتعلم فأدابه ووظائفه الظاهرة كثيرة ، ولكن ننظم تفاريقها
عشر جمل :

الوظيفة الاولى : تقديم طهارة القلب عن رذائل الاخلاق ، ومذموم
الاوصاف ، اذ العلم عبادة القلب ، وصلاة السر ، وقربة الباطن الى
الله تعالى ...

الوظيفة الثانية : ان يقلل علائقه من الاشتغال بالدنيا ، ويبعد عن
الاهل والوطن ، فان العلائق شاغلة وصارفة ، وما جعل الله لرجل من

قلبين في جوفه . ومهما توزعت الفكرة ، قصرت عن درك الحقائق . ولذلك قيل : العلم لا يعطيك بعضه ، حتى تعطيه كلك ...

الوظيفة الثالثة : ان لا يتكبر على العلم ، ولا يتأمر على المعلم ، بل يلقي اليه زمام امره بالكلمة في كل تفصيل ، ويدعن لنصيحته اذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق . وينبغي ان يتواضع لمعلمه ، ويطلب الثواب والشرف بخدمته ...

الوظيفة الرابعة : ان يحتز الحائض في العلم ، في مبدأ الامر ، عن الاصغاء الى اختلاف الناس ، سواء كان ما خاض فيه من علوم الدنيا او من علوم الآخرة . فان ذلك يدهش عقله ، ويحير ذهنه ، ويفتر رأيه ، ويؤنسه عن الادراك والاطلاع . بل ينبغي ان يتقن أولاً الطريقة الحميدة الواحدة ، المرضية عند استاذه ، ثم بعد ذلك يصغي الى المذاهب والشبه . وان لم يكن استاذه مستقلاً باختيار رأي واحد ، وانما عاداته نقل المذاهب وما قيل فيها ، فليحذر منه ، فان اضلاله اكثر من ارشاده ، فلا يصلح الاعمى لقود العميان ...

الوظيفة الخامسة : ان لا يدع طالب العلم فناً من العلوم المحمودة ، ولا نوعاً من انواعه ، الا وينظر فيه نظراً يطلع به على مقصده وغايته . ثم ان ساعده العمر ، طلب التبحر فيه ، والا اشتغل بالاهم منه ، واستوفاه ، وتطرف من البقية ، فان العلوم متعاونة ، وبعضها مرتبط ببعض ...

الوظيفة السادسة : ان لا يخوض في فن من فنون العلم دفعة ، بل يراعي الترتيب ، ويبتدئ بالاهم . فان العمر ، اذا كان لا يتسع لجميع العلوم غالباً ، فالحزم ان يأخذ من كل شيء احسنه ، ويكتفي منه بشمه ، ويصرف جوام قوته في الميسور من علمه الى استكمال العلم ، الذي هو اشرف العلوم ، وهو علم الآخرة ، اعني قسمي المعاملة والمكاشفة . فغاية المعاملة المكاشفة ، وغاية المكاشفة معرفة الله تعالى .

ولست اعني به الاعتقاد الذي يتلقفه العامي وراثته او تلقفاً ، ولا طريق تحرير الكلام والمجادلة في تحصيل الكلام عن مراوغات الخصوم ، كما هي غاية المتكلم بل ذلك نوع يقين ، هو ثمرة نور ، يقذفه الله تعالى في قلب عبد ، طهر بالمجاهدة باطنه عن الحباث ... فكن حريصاً على معرفة ذلك السر الخارج عن بضاعة الفقهاء والمتكلمين ، ولا يرشدك اليه الا حرصك في الطلب . وعلى الجملة ، فاشرف العلوم وغايتها معرفة الله عز وجل ، وهو بحر لا يدرك منتهى غوره ، واقصى درجات البشر فيه رتبة الانبياء ، ثم الاولياء ثم الذين يلونهم ...

الوظيفة السابعة : ان لا يخوض في فن ، حتى يستوفي الفن الذي قبله .
الوظيفة الثامنة : ان يعرف السبب ، الذي به يدرك اشرف العلوم .
وان ذلك يراد به شيان ، احدهما شرف الثمرة ، والثاني وثاقة الدليل وقوته . وذلك كعلم الدين وعلم الطب ، فان ثمرة احدهما الحياة الابدية ، وثمره الآخر الحياة الفانية ، فيكون علم الدين اشرف . ومثل علم الحساب وعلم الطب ، فان علم الحساب اشرف لوثاقته ادنته وقوتها . وان نسب الحساب الى الطب ، كان الطب اشرف باعتبار ثمرته ، والحساب اشرف باعتبار ادنته ، وملاحظة الثمرة اولى ...

الوظيفة التاسعة : ان يكون قصد المتعلم ، في الحال ، تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة ، وفي المآل القرب من الله ...
الوظيفة العاشرة : ان يعلم نسبة العلوم الى المقصد ، كيايؤثر الرفيع القريب على البعيد ، والمهم على غيره ...
وظائف المرشد المعلم : ...

الوظيفة الاولى : الشفقة على المتعلمين ، وان يجريهم مجرى بنيته ...
وانما المعلم هو المفيد للحياة الاخرية الدائمة ، اعني معلم علوم الآخرة ، او علوم الدنيا على قصد الآخرة ، لا على قصد الدنيا . فاما التعليم على

قصد الدنيا فهو هلاك واهلاك ، نعوذ بالله منه . وكما ان حق ابناء الرجل الواحد ان يتحابوا ويتعاونوا على المقاصد كلها ، فكذلك حق تلامذة الرجل الواحد التحاب والتوادة ...

الوظيفة الثانية : ان يقتدي بصاحب الشرع ، صلوات الله عليه وسلامه ، فلا يطلب على افادة العلم اجراً ، ولا يقصد به جزاء ولا شكراً ، بل يعلم لوجه الله تعالى ، وطلباً للتقرب اليه . ولا يرى لنفسه منة عليهم ، وان كانت المنة لازمة عليهم ...

الوظيفة الثالثة : ان لا يدع من نصح المتعلم شيئاً ...
الوظيفة الرابعة ، وهي من دقائق صناعة التعليم : ان يزجر المتعلم عن سوء الاخلاق ، بطريق التعريض ما امكن ، ولا يصرح ، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ . فان التصريح يهتك حجاب الهيبة ، ويورث الجراة على الهجوم بالخلاف ، ويميج الحرص على الإصرار ...
الوظيفة الخامسة : ان المتكفل ببعض العلوم ينبغي ان لا يقبح ، في نفس المتعلم ، العلوم التي وراه ، كعلم اللغة اذ عادته تقبيح علم الفقه ...

الوظيفة السادسة : ان يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه ، فلا يلقي اليه ما لا يبلغه عقله ، فينفره ...

الوظيفة السابعة : ان المتعلم القاصر ينبغي ان يلقي عليه الجلي اللائق به ، ولا يذكر له ان وراه هذا تدقيقاً ، وهو يدخره عنه . فان ذلك يفتت رغبته في الجلي ، ويشوش عليه قلبه ، ويوهم اليه البخل عنه ، اذ يظن كل احد انه اهل لكل علم دقيق . فاما من احد الا وهو راض عن الله سبحانه في كمال عقله ، واشدهم حماقة ، واضعفهم عقلاً ، هو افرحهم بكمال عقله ...

الوظيفة الثامنة : ان يكون المعلم عاملاً بعلمه ، فلا يكذب قوله
فعله . . .

(الاحياء : ١ : ص ٢٦-٤٤)

آفات النطام وفوائده

وفيه فوائد خمسة : الولد ، وكسر الشهوة ، وتدبير المنزل ، وكثرة
العشيرة ، ومجاهدة النفس بالقيام بهن .

الفائدة الاولى الولد ، وهو الاصل ، وله وُضع النكاح^(١) ، والمقصود
ابقاء النسل ، وان لا ينجو العالم عن جنس الانس ، وانما الشهوة خلقت
بأعثة مستحثة . . .

الفائدة الثانية التحصن عن الشيطان ، وكسر التوقان ، ودفع غوائل
الشهوة ، وغض البصر . . .

الفائدة الثالثة ترويح النفس ، وايناسها بالجلاسة والنظر والملاعبة ،
اراحة للقلب ، وتقوية له على العبادة . فان النفس ملول ، وهي عن الحق
نفور ، لانه على خلاف طبعها ، فلو كلفت المداومة بالاكراه على ما يخالفها
جمعت وثابت ، واذا رَوّحت بالذات في بعض الاوقات قويت ونشطت .
وفي الاستئناس بالنساء من الاستراحة ما يزيل الكرب ، ويروح القلب ،
وينبغي ان يكون لنفوس المتقين استراحات بالمباحات . . .

الفائدة الرابعة تفريغ القلب عن تدبير المنزل ، والتكفل بشغل الطبخ
والكنس والفرش وتنظيف الاواني ، وتهية اسباب المعيشة . . .

الفائدة الخامسة مجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية ، والقيام
بحقوق الاهل ، والصبر على اخلاقهن ، واحتمال الاذى منهن ، والسعي

(١) النكاح هو الزواج الشرعي .

في اصلاحهن وارشادهن الى طريق الدين ، والاجتهاد في كسب الحلال
لاجلهن ، والقيام بتربيته لاولاده . فكل هذه اعمال عظيمة الفضل ...
اما آفات النكاح فثلاث :

الاولى ، وهي اقواها ، العجز عن طلب الحلال . فان ذلك لا يتيسر
لكل احد ، لا سيما في هذه الاوقات ، مع اضطراب المعاش ، فيكون
النكاح سبباً في التوسع للطلب ، والاطعام من الحرام ، وفيه هلاكه
وهلاك اهله . والمتعزب في أمن من ذلك ، واما المتزوج ففي الاكثر
يدخل في مداخل سوء ، فيتبع هوى زوجته ، ويبيع آخرته بدنياه ...
الآفة الثانية القصور عن القيام بحقوقهن ، والصبر على اخلاقهن ،
واحتمال الاذى منهن . وهذه دون الاولى في العموم ، فان القدرة على هذا
ايسر من القدرة على الاولى . وتحسين الخلق مع النساء ، والقيام بمحظوظهن
اهون من طلب الحلال ...

الآفة الثالثة ، وهي دون الاولى والثانية ، ان يكون الاهل والولد
شاغلاً له عن الله تعالى ، وجاذباً له الى طلب الدنيا ، وحسن تدبير
المعيشة لاولاد بكثرة جمع المال ، وادخاره لهم ، وطلب التفاخر والتكاثر
بهم . وكل ما شغل عن الله من اهل ومال فهو مشغوم على صاحبه .
ولست اعني بهذا ان يدعو الى محذور ، فان ذلك مما اندرج تحت الآفة
الاولى والثانية ، بل ان يدعو الى التمتع بالمباح ، بل الى الاغراق في
ملاعبة النساء وموانستهن ، والامعان في التمتع بهن ...

فهذه مجامع الآفات والفوائد . فالحكم على شخص واحد بان
الافضل له النكاح او العزوبة مطلقاً قصور عن الاحاطة بمجامع هذه
الامور . بل تتخذ هذه الفوائد والآفات معتبراً ومحكاً ، ويعرض المريد
عليه نفسه ، فان انتفتت في حقه الآفات ، واجتمعت الفوائد ، بأن كان
له مال حلال ، وخلق حسن ، وجد في الدين تام لا يشغله النكاح عن

الله ، وهو مع ذلك شاب محتاج الى تسكين الشهوة ، ومنفرد يحتاج الى تدبير المأكل والتحصن بالعشيرة ، فلا يُمارى في ان النكاح افضل له ، مع ما فيه من السعي في تحصيل الولد . فان انتفت الفوائد ، واجتمعت الآفات ، فالعزوبة افضل له . وان تقابل الامران ، وهو الغالب ، فينبغي ان يوزن بالميزان القسط حظ تلك الفائدة في الزيادة من دينه ، وحظ تلك الآفات في النقصان منه ، فاذا غلب على الظن رجحان احدهما حكم به . واطهر الفوائد الولد وتسكين الشهوة ، واطهر الآفات الحاجة الى كسب الحرام ، والاستغالل عن الله .

(الاحياء : ربع العادات : الكتاب الثاني)

معرفة عيوب النفس

اعلم ان الله ، عز وجل ، اذا اراد بعبد خيراً ، بصره بعيوب نفسه . فن كانت بصيرته نافذة ، لم تحف عليه عيوبه ، فاذا عرف العيوب امكنه العلاج . ولكن اكثر الخلق جاهلون بعيوب انفسهم ، يرى احدهم القذى في عين اخيه ، ولا يرى الجذع في عين نفسه . فن اراد ان يعرف عيوب نفسه ، فله اربعة طرق : الاول : ان يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس ، مطلع على خفايا الآفات ، ويحكمه في نفسه ، ويتبع اشارته في مجاهدته . وهذا شأن المريد مع شيخه ، والتلميذ مع استاذه ، فيعرفه استاذه وشيئنه عيوب نفسه ، ويعرفه طريق علاجه . وهذا قد عز في هذا الزمان وجوده . الثاني : ان يطلب صديقاً صدوقاً ، بصيراً متديناً ، فينصبه رقيباً على نفسه ، ليلاحظ احواله وافعاله ، فما كره من اخلاقه وافعاله ، وعيوبه الباطنة والظاهرة ، ينبه عليه ...

الثالث : ان يستفيد معرفة عيوب نفسه من السنة اعدائه ، فان عين السخط تبدي المساويا ...

الرابع : ان يخاطب الناس ، فكل ما رآه مذموماً فيما بين الخلق ، فليطالب نفسه به ، وينسبها اليه .

(الاحياء : ربيع المهلكات : كتاب رياضة النفس)

رياضة المرید

انَّ له شروطاً لا بد من تقديمها في بداية الارادة ، وله معتصم لا بد من التمسك به ، وله حصن لا بد من التحصن به ليأمن من الاعداء .
القطاع لطريقه ، وعليه وظائف لا بد من ملازمتها في وقت سلوك الطريق .

اما الشروط ، التي لا بد من تقديمها في الارادة ، فهي رفع السد والحجاب ، الذي بينه وبين الحق . . . والسد بين المرید وبين الحق اربعة : المال ، والجاه ، والتقليد ، والمعصية .

وانما يرفع حجاب المال بخروجه عن ملكه ، حتى لا يبقى له الا قدر الضرورة ، فما دام يبقى له درهم يلتفت اليه قلبه ، فهو مقيد به ، محجوب عن الله عز وجل .

وانما يرتفع حجاب الجاه بالبعد عن موضع الجاه ، بالتواضع وايتثار الخمول ، والهرب من اسباب الذكر ، وتعاطي اعمال تنفر قلوب الخلق عنه .
وانما يرتفع حجاب التقليد ، بان يترك التعصب للمذاهب . . . فان غلب عليه التعصب لمعتقده ، ولم يبق في نفسه متسع لغيره ، صار ذلك قيذاً له وحجاباً ، اذ ليس من شرط المرید الانتماء الى مذهب معين اصلاً .
واما المعصية فهي حجاب ، ولا يرفعها الا التوبة ، والخروج من المظالم ، وتصميم العزم على ترك العود ، وتحقيق الذم على ما مضى . . .
فاذا قدم هذه الشروط الاربعة . . . يحتاج الى شيخ واستاذ يقتدي به . . . فاذا وجد مثل هذا المعتصم ، وجب على معتصمه ان يحسبه ،

ويعصمه بحصن حصين ، يدفع عنه قواطع الطريق ، وهو اربعة امور :
الخلوة والصمت والجوع والسهو...

واما الجوع فانه ينقص دم القلب ويبيضه ، وفي بياضه نوره ،
ويذيب شحم الفؤاد ، وفي ذوبانه رفته ، ورقته مفتاح المكاشفة...
وقال عيسى عليه السلام : يا معشر الحواريين ، جوعوا بطونكم ، لعل
قلوبكم ترى ربكم...

واما السهر فانه يحلو القلب ويصفيه ، وينوره ، فيضاف ذلك الى
الصفاء الذي حصل من الجوع...

واما الصمت فانه تسهله العزلة ، ولكن المعتزل لا يخلو عن مشاهدة من
يقوم له بطعامه وشرابه وتديبر امره ، فينبغي ان لا يتكلم الا بقدر
الضرورة ، فان الكلام يشغل القلب ، وشره القلوب الى الكلام عظيم...
واما الخلوة ففائدتها دفع الشواغل ، وضبط السمع والبصر ، فانها
دهليز القلب ، والقلب في حكم حوض ، تنصب اليه مياه كريمة
كدرة قدرة من انهار الحواس ، ومقصود الرياضة تفريغ الحوض من تلك
المياه ، ومن الطين الحاصل منها ، ليتفجر اصل الحوض ، فيخرج منه الماء
النظيف الطاهر... وليس يتم ذلك الا بالخلوة في بيت مظلم ، وان لم
يكن له مكان مظلم ، فليلف رأسه في جيبه ، او يتدثر بكساء او
ازار ، ففي مثل هذه الحالة يسمع نداء الحق ، ويشاهد جلال الحضرة
الربوبية...

فهذه الاربعة جنة وحصن بها تدفع عنه القواطع ، وتنفع العوارض
القاطعة للطريق ، فاذا فعل ذلك ، اشتغل بعده بسلك الطريق . وانما
سلوكه بقطع العقبات ، ولا عقبه على طريق الله تعالى الا صفات القلب ،
التي سببها الالتفات الى الدنيا...

(الاحياء : ربع المهلكات : كتاب رياضة النفس)

ذم الغنى وصرح الفقر

اعلم ان الناس قد اختلفوا في تفضيل الغني الشاكر على الفقير الصابر ، وقد اوردنا ذلك في كتاب الفقر والزهد^١ ، وكشفنا عن تحقيق الحق فيه . ولكننا في هذا الكتاب ندل على ان الفقر افضل واعلى من الغنى على الجملة ، من غير التفات الى تفصيل الاحوال . ونقتصر فيه على حكاية فصل ، ذكره الحارث المحاسبي في بعض كتبه ، في الرد على بعض العلماء من الاغنياء ، حيث احتج باغنياء الصحابة ، وبكثرة مال عبد الرحمن بن عوف ، وشبه نفسه بهم . . .

قال ، بعد كلام له في الرد على علماء السوء : بلغنا ان عيسى ابن مريم عليه السلام قال :

« يا علماء السوء ، تصومون وتصلون وتصدقون ، ولا تفعلون ما تؤمرون ، وتدرسون ما لا تعلمون ، فيا سوء ما تحكمون . تبرون بالقول والاماني ، وتعلمون بالهوى ، وما يغني عنكم ان تنقوا جلودكم ، وقلوبكم دنسة . بحق اقول لكم ، لا تكونوا كالنخل ، يخرج منه الدقيق الطيب ، وتبقى فيه النخالة . كذلك انتم تخرجون الحكم من افواهكم ، ويبقى الغل في صدوركم . يا عبید الدنيا ، كيف يدرك الآخرة من لا تنقضي من الدنيا شهوته ، ولا تنقطع منها رغبته . بحق اقول لكم ان قلوبكم تبكي من اعمالكم . جعلتم الدنيا تحت السنتكم ، والعمل تحت اقدامكم . بحق اقول لكم ، افسدتم آخرتكم ، فصلاح الدنيا احب اليكم من صلاح الآخرة ، فاي الناس اخسر منكم لو تعلمون . ويلكم حتام تصفون الطريق للمدجلين ، وتقيمون في محل

(١) هو كتاب من ربيع المنجيات

المتحيرين ، كأنكم تدعون اهل الدنيا ليتذكروها اكم ؟ مهلا ، مهلا ،
 ويلكم ، ماذا يغني عن البيت المظلم ان يوضع السراج فوق ظهره ،
 وجوفه موحش مظلم . كذلك لا يغني عنكم ان يكون نور العلم
 بافواهكم ، واجوافكم منه موحشة معطلة . يا عبيد الدنيا ، لا كعبيد
 اتقيا ، ولا كاحرار كرام ، تؤشك الدنيا ان تقلعكم عن اصولكم ،
 فتلقىكم على وجوهكم ، ثم تكبكم على مناخركم ؛ ثم تأخذ خطاياكم
 بنواصيكم ، ثم تدفعكم من خلفكم ، حتى تسلمكم الى الملك الديان
 عراة فرادى ، فيوقفكم على سواآتكم ، ثم يجزيكم بسوء اعمالكم .
 ثم قال الحرث ، رحمه الله : اخواني ، فهؤلاء علماء السوء ، شياطين
 الانس ، وفتنة على الناس ، رغبوا في عرض الدنيا ورفعتها ، وآثروها
 على الآخرة ، واذلوا الدين للدنيا .

(الاحياء : ربع المهلكات : كتاب ذم حب المال)

الرياء

الرياء طلب الميزة في قلوب الناس ، بابرائهم خصال الخير . والمرادى
 به كثير ، وتجميعه خمسة اقسام . . . : البدن ، والزي ، والقول ، والعمل ،
 والاتباع والاشياء الخارجة . . .

القسم الاول الرياء في الدين بالبدن . وذلك باظهار النحول ، والصغار ،
 ليوهم بذلك شدة الاجتهاد ، وعظم الحزن على امر الدين ، وغلبة خوف
 الآخرة ، وليدل بالنحول على قلة الاكل ، وبالصغار على سهر الليل . . .
 وكذلك يراني بتسقيش الشعر ، ليدل به على استغراق الهم بالدين ،
 وعدم التفرغ لتسريح الشعر ويقرب من هذا خفض الصوت ، واغارة
 العينين ، وذبول الشفتين ، ليستدل بذلك على انه مواظب على الصوم ،

وان وقار الشرع هو الذي خفض من صوته ، او ضعف الجوع هو الذي
ضعف من قوته . وعن هذا قال المسيح ، عليه السلام : اذا صام احدكم ،
فليدهن رأسه ، ويرجل شعره ، ويكحل عينيه ...

الثاني الرياء بالهيئة والزي . اما الهيئة فتبشيعث الشعر ، وحلق
الشارب ، واطراق الرأس في المشي ، والهدء في الحركة ، وابقاء اثر السجود
على الوجوه ، وغلظ الثياب ، ولبس الصوف ، وتشميرها الى قريب من
الساق ، وتقصير الاكمام ، وترك تنظيف الثوب ، وتركه مخرقاً ...
والمراؤون بالزي على طبقات . فمنهم من يطلب المتزلة عند اهل الصلاح
بإظهار الزهد ، فيلبس الثياب المخرقة ، الوسخة ، القصيرة ، الغليظة ، ليرائي
بغلظها ووسخها وقصرها وتحرقها انه غير مكترث بالدنيا ، ولو كلف
ان يلبس ثوباً وسطاً نظيفاً ، مما كان السلف يلبسه ، لكان عنده بمنزلة
الذبيح ... وطبقة اخرى يطلبون القبول عند اهل الصلاح ، وعند اهل
الدنيا من الملوك والوزراء والتجار ، ... فلذلك يطلبون الاصواف
الدقيقة ، والاكسية الرقيقة ، والمرقعات المصبوغة ، والقوط الرفيعة ،
فيلبسونها . ولعل قيمة ثوب احدهم قيمة ثوب احد الاغنياء ، ولونه وهيئته
لون ثياب العلماء ، فيلتبسون القبول عند الفريقين ...

الثالث الرياء بالقول . ورياء اهل الدين بالوعظ والتذكير ، والنطق
بالحكمة ، وحفظ الاخبار والآثار ، لاجل الاستعمال في المحاوره ...
وتحريك الشفتين بالذكر في محضر الناس ، والامر بالمعروف والنهي عن
المنكر بمشهد الخلق ، وإظهار الغضب للمنكرات ، وإظهار الاسف على
مقارفة الناس للمعاصي ، وتضعيف الصوت في الكلام ، وترقيق الصوت
بقراءة القرآن ...

الرابع الرياء بالعمل . كمرآة المصلي بطول القيام ، ومد الظهر ، وطول
السجود والركوع واطراق الرأس ، وترك الالتفاتات ، وإظهار الهدء

والسكون ، وتسوية القدمين واليدين . . . وبالاخبات في المشي عند اللقاء ،
كارخاء الجفون ، وتنكيس الرأس ، والوقار في الكلام ، حتي ان المرائي
قد يسرع في المشي الى حاجته ، فاذا طلع عليه احد من اهل الدين ،
رجع الى الوقار ، واطراق الرأس . . .

الخامس المراءة بالاصحاب ، والزائرين ، والمخاطبين . كالذي يتكلف
ان يستتير عالماً من العلماء ، ليقال ان فلاناً زار فلاناً ، او عابداً من
العباد ، ليقال ان اهل الدين يتبركون بزيارته ويترددون اليه ، او ملكاً
من الملوك او عاملاً من عمال السلطان ، ليقال انهم يتبركون به ، لعظم
رتبته في الدين^(١) . . .

فهذه مجامع ما يراي به المراءون ، وكلهم يطالبون بذلك الجاه والمزلة
في قلوب العباد .

(الاحياء : ربع المهلكات : كتاب ذم الجاه والرياء)

علاج حب الجاه

ان من غلب على قلبه حب الجاه صار مقصور الهم على مراعاة الخلق ،
مشغولاً بالتودد اليهم ، والمرآة لاجلهم . . . فحب الجاه اذاً من
المهلكات ، فيجب علاجه وازالته عن القلب . . . وعلاجه مركب من
علم وعمل .

اما العلم فهو ان يعلم السبب الذي لاجله احب الجاه ، وهو كمال
القدرة على اشخاص الناس ، وعلى قلوبهم . وقد بينا ان ذلك ، ان
صفا وسامه ، فأخذه الموت ، فليس هو من الباقيات الصالحات . بل لو

(١) ان ما يسرده الغزالي من مظاهر الرياء ، هو ايضاً ، في بعضه ، من مظاهر
الفضيلة الصحيحة . وانما الفرق في النية .

سجد لك كل من على بسيط الارض من المشرق الى المغرب ، فالى خمسين سنة لا يبقى الساجد ولا المسجود له ...

وابصار اكثر الخلق ضعيفة ، مقصورة على العاجلة ، لا يمتد نورها الى مشاهدة العواقب ... فمن هذا حده فينبغي ان يعالج قلبه من حب الجاه بالعلم بالآفات العاجلة ، وهو ان يتفكر في الاخطار التي يستهدف لها ارباب الجاه في الدنيا ، فان كل ذي جاه محسود ومقصود بالايزاء ، وخائف على الدوام على جاهه ، ومحترز من ان تتغير منزلته في القلوب ، والقلوب اشد تغيراً من القدر في غليانها ، وهي مترددة بين الاقبال والاعراض ، فكل ما يبني على قلوب الخلق يضاهي ما يبني على امواج البحر ، فانه لا ثبات له . والاشتغال بمراعاة القلوب ، وحفظ الجاه ، ودفع كيد الحساد ، ومنع اذى الاعداء ، كل ذلك غموم عاجلة ، ومكدرة للذة الجاه ...

واما من حيث العمل فاسقاط الجاه عن قلوب الخلق بمباشرة افعال يلام عليها ... ولا يجوز له ان يقدم على محذور لاجل ذلك ، بل له ان يفعل من المباحات ما يسقط قدره عند الناس .
(الاحياء : ربع المهلكات : كتاب ذم الجاه والرياء)

دواء الحسد

ان الحسد من الامراض العظيمة للقلوب ، ولا تداوى امراض القلوب الا بالعلم والعمل .

والعلم النافع لمرض الحسد هو ان تعرف تحقيقاً ان الحسد ضرر عليك في الدنيا والدين ، وانه لا ضرر فيه على المحسود في الدنيا والدين ، بل ينتفع به فيها .. ومهما عرفت ذلك عن بصيرة ، ولم تكن عدو نفسك ، وصديق عدوك ، فارقت الحسد لا محالة .

اما كونه ضرراً عليك في الدين فهو انك بالحسد سخطت قضا . الله تعالى وكرهت نعمته التي قسمها بين عباده ، وعدله الذي اقامه في ملكه بجفائي حكمته ، فاستكرت ذلك ، واستبشعته ، وهذه جناية ...
واما كونه ضرراً عليك في الدنيا فهو انك تتألم بحسدك في الدنيا ، او تتعذب به ، ولا تزال في كد وغم ، اذ اعداؤك لا يخليهم الله تعالى عن نعم يفيضها عليهم ، فلا تزال تتعذب بكل نعمة تراها ، وتتألم بكل بلية تنصرف عنهم ، فتبقى مغموماً محروماً ، متشبب القلب ضيق الصدر ، قد نزل بك ما يشبهه الاعداء الك ، وتشبهه لاعدائك . فقد كنت تريد المحنة لعدوك ، فتجنزت في الحال محنتك وغمك نقدا . ومع هذا فلا تزال النعمة عن المحسود بحسدك ...

واما انه لا ضرر على المحسود في دينه ودنياه فواضح ، لان النعمة لا تزال عنه بحسدك ، بل ما قدره الله تعالى من اقبال ونعمة فلا بد ان يدوم الى اجل معلوم ... ولذلك شكنا نبي من الانبياء من امرأة ظالمة مستولية على الخلق ، فاوصى الله اليه : فر من قدامها حتى تنقضي ايامها ... ومهما لم تزال النعمة بالحسد ، لم يكن على المحسود ضرر في الدنيا ، ولا يكون عليه اثم في الآخرة . ولعلك تقول : ليت النعمة كانت تزال عن المحسود بحسدي ! وهذا غاية الجهل ، فانه بلاه تشبهه اولاً لنفسك ، فانك ايضاً لا تخلو عن عدو يحسدك ، فلو كانت النعمة تزال بالحسد ، لم يبق لله تعالى عليك نعمة ، ولا على احد من الخلق ، ولا نعمة الايمان ايضاً ، لان الكفار يحسدون المؤمنين على الايمان ... وان اشتبهت ان تزال النعمة عن الخلق بحسدك ، ولا تزال عنك بحسد غيرك ، فهذا غاية الجهل والغباء ، فان كل واحد من حمقى الحساد ايضاً يشتهي ان يخص بهذه الخاصية ، ولست بأولى من غيرك ...
واما ان المحسود ينتفع به في الدين والدنيا فواضح . اما منفعته في

الدين فهو انه مظلوم من جهتك ، لاسيما اذا اخرجك الحسد الى القول والفعل بالغيبة ، والقدح فيه ، وهتك ستره ، وذكر مساوئه ... واما منفعة في الدنيا فهو ان اهم اغراض الخلق مساواة الاعداء وغهم وشقاوتهم وكونهم معذبين مغمومين ، ولا عذاب اشد مما انت فيه من ألم الحسد . وغاية امانى اعدائك ان يكونوا في نعمة ، وان تكون في غم وحسرة بسلبهم ، وقد فعلت بنفسك ما هو مرادهم . ولذلك لا يشتهي عدوك موتك ، بل يشتهي ان تطول حياتك ، ولكن في عذاب الحسد ، لتنظر الى نعمة الله عليه فينقطع قلبك حسداً ، ولذلك قيل :

لا مات اعداؤك ، بل خلدوا حتى يروا فيك الذي يكمد
لا زلت محسوداً على نعمة فانما الكامل من يحسد!..

واما العمل النافع فيه فهو ان يحكم الحسد ، فكل ما يتقاضاه الحسد من قول وفعل فينبغي ان يكلف نفسه نقيضه . فان بعثه الحسد على القدح في محسوده كلّف لسانه المدح له والثناء عليه ، وان حمّله على التكبر عليه ألزم نفسه التواضع له ، والاعتذار اليه . وان بعثه على كف الانعام عليه ، ألزم نفسه الزيادة في الانعام عليه . ففهما فعل ذلك عن تكلف ، وعرفه المحسود ، طاب قلبه واجبه ، ومهما ظهر جبه عاد الحاسد فاجبه ، وتولد من ذلك الموافقة التي تقطع مادة الحسد ، لان التواضع والثناء والمدح واطهار السرور بالنعمة يستجلب قلب المنعم عليه ، ويستترقه ، ويستعطفه ، ويحمّله على مقابلة ذاك بالاحسان ... فهذه هي ادوية الحسد ، وهي نافعة جداً ، الا انها مرة على القلوب جداً . ولكن النفع في الدواء المر !

(ربح المهلكات : الحسد)

التوكل

التوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده ... فان ثبت في نفسك ، بكشف او باعتقاد جازم ، انه لا فاعل الا الله ، كما سبق ، واعتقدت مع ذلك تمام العلم ، والقدرة على كفاية العباد ، ثم تمام العطف والعناية والرحمة بجملة العباد والآحاد ، وانه ليس وراء منتهى قدرته قدرة ، ولا وراء منتهى علمه علم ، ولا وراء منتهى عنايته بك ورحمته لك عناية ورحمة ، اتكل لا محالة قلبك عليه وحده ، ولم يلتفت الى غيره بوجه ، ولا الى نفسه وحوله وقوته ، فانه لا حول ولا قوة الا بالله ... واذا انكشف لك معنى التوكل ، وعلمت الحالة التي سميت توكلًا فاعلم ان تلك الحالة لها في القوة والضعف ثلاث درجات :

الدرجة الاولى ... ان يكون حاله في حق الله تعالى ، والثقة بكفالاته وعنايته ، كحاله في الثقة بالوكيل .

الثانية ، وهي اقوى ، ان يكون حاله مع الله تعالى ، كحال الطفل مع امه . فانه لا يعرف غيرها ، ولا يفرغ الى احد سواها ، ولا يعتمد الاها ، فاذا رآها تعلق في كل حال بذيلها ، ولم يخلصها ، وان نابه امر في غيبتها ، كان اول سابق الى لسانه : يا اماه ...

الثالثة ، وهي اعلاها ، ان يكون بين يدي الله تعالى ، في حر كاته وسكناته ، مثل الميت بين يدي الغاسل ، لا يفارقه الا في انه يري نفسه ميتاً ، تحركه القدرة الازلية كما تحرك يد الغاسل الميت . وهو الذي قوي يقينه بانه مجرى للحركة والقدرة والارادة والعلم وسائر الصفات ، وان كلاً يحدث جبراً ، فيكون بائناً عن الانتظار لما يجري عليه . ويفارق الصبي ، فان الصبي يفرغ الى امه ، ويصيح ، ويتعلق بذيلها ، ويعدو خلفها . بل هو مثل صبي علم انه ، وان لم يزعق بامه ، فالام تطلبه ، وانه ،

وان لم يتعلق بذيل امه ، فالام تحمله ، وان لم يسألها اللبن ، فالام تفتاقحه
وتسقيه . وهذا المقام في التوكل يشتر ترك الدعاء والسؤال منه ، ثقة
بكرمه وعنايته ، وانه يُعطي ابتداء افضل مما يسأل .

(الاحياء : ربع المنجيات : كتاب التوكل)

محبة الله

ان المحبة لله هي الغاية القصوى من المقامات ، والذروة العليا من
الدرجات . فما بعد ادراك المحبة مقام الآ وهو ثمرة من ثمارها ، وتابع من
توابعها ، كالشوق والانس والرضى واخواتها . ولا قبل المحبة مقام الا
وهو مقدمة من مقدماتها ، كالتوبة والصبر والزهّد وغيرها .

وسائر المقامات ، ان عز وجودها ، فلم تخلُ القلوب عن الايمان
بامكانها . واما محبة الله تعالى فقد عز الايمان بها ، حتى انكر بعض
العلماء امكانها ، وقال لا معنى لها الا المواظبة على طاعة الله تعالى . واما
حقيقة المحبة فحال الامع الجنس والمثال . ولما انكروا المحبة ، انكروا
الانس والشوق ولذة المناجاة ، وسائر لوازم الحب وتوابعه . ولا بد من
كشف الغطاء عن هذا الامر . ونحن نذكر ... بيان شواهد الشرع في
المحبة ، ثم بيان حقيقتها واسبابها ، ثم بيان ان لا مستحق للمحبة الا الله
تعالى ...

١ - شواهد الشرع

اعلم ان الامة مجمعة على ان الحب لله تعالى ، ولرسول الله صلى الله
عليه وسلم ، فرض . وكيف يفرض ما لا وجود له ؟ وكيف يفسر الحب
بالطاعة ، والطاعة تبغ الحب وثمرته ، فلا بد وان يتقدم الحب ، ثم بعد
ذلك يطيع من احب .

ويدل على اثبات الحب لله تعالى قوله ، عز وجل : «يحبهم ويحبونه» ، وقوله تعالى : «والذين آمنوا أشد حبا لله» ، وهو دليل على اثبات الحب ، واثبات التفاوت فيه ...

وفي الخبر المشهور ان ابراهيم ، عليه السلام ، قال لملك الموت ، اذ جاءه لقبض روحه : هل رأيت خليلاً عييت خليله ؟ فاوصى الله تعالى اليه : هل رأيت محباً يكره لقاء حبيبه ؟ فقال : يا ملك الموت ، الآن فاقبض ! وروى ان عيسى ، عليه السلام ، مر بثلاثة نفر ، قد نخلت ابدانهم ، وتغيرت ألوانهم ، فقال : ما الذي بلغ بكم ما ارى ؟ فقالوا : الخوف من النار . فقال : حق على الله ان يؤمن الخائف . ثم جاوزهم الى ثلاثة اخرين ، فاذا هم اشد نحولاً وتغيراً ، فقال : ما الذي بلغ بكم ما ارى ؟ قالوا : الشوق الى الجنة . فقال : حق على الله ان يعطيكم ما ترجون . ثم جاوزهم الى ثلاثة آخرين ، فاذا هم اشد نحولاً وتغيراً ، كأن على وجوههم المرائي من النور ، فقال : ما الذي بلغ بكم ما ارى ؟ قالوا : نحب الله ، عز وجل . فقال : انتم المقربون ، انتم المقربون ، انتم المقربون ! ...

٢ - حقيقة المحبة واسماها

اول ما ينبغي ان يتحقق انه لا يتصور محبة ، الا بعد معرفة وادراك ، اذ لا يجب الانسان الا ما يعرفه ...

الاصل الثاني ان الحب ، لما كان تابعاً للادراك والمعرفة ، انقسم لا محالة ، بحسب انقسام المدركات والحواس . فلكل حاسة ادراك نوع من المدركات ، ولكل واحد منها لذة في بعض المدركات ... قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : «حَبَّبَ الي من دنياكم ثلاث : الطيب والنساء والصلاة ، وجعل قرة عيني في الصلاة .» فسمى الطيب محبوباً ، ومعلوم انه لا حظ للعين والسمع فيه ، بل للشم فقط . وسمى النساء محبوبات ، ولا حظ فيهن

الا للبصر واللمس ، دون الشم والذوق والسمع . وسَمَّى الصلاة قرّة عين ، وجعلها ابلغ المحبوبات ، ومعلوم انه ليس تحظى بها الحواس الخمس ، بل حس سادس ، مظنّته القلب ، لا يدركه الا من كان له قلب . ولذات الحواس الخمس تشارك فيها البهائم الانسان ، فان كان الحب مقصوراً على مدركات الحواس الخمس ، حتى يقال ان الله تعالى لا يدرك بالحواس ، ولا يتمثل بالخيال ، فلا يجب ، فاذا قد بطلت خاصية الانسان ، وما تميز به من الحس السادس ، الذي يعبر عنه اما بالعقل ، او بالنور او بالقلب ... فلا ينكر اذا حب الله تعالى الا من تعد به القصور في درجة البهائم ...

ترجع اسباب الحب الى خمسة اسباب : وهو حب الانسان وجود نفسه ، وكأله وبقائه ؛ ووجهه من احسن اليه فيما يرجع الى دوام وجوده ، ويعين على بقاءه ، ودفع المهلكات عنه ؛ ووجه من كان محسناً في نفسه الى الناس ، وان لم يكن محسناً اليه ؛ ووجه لكل ما هو جميل في ذاته ، سواء كان من الصور الظاهرة او الباطنة ؛ ووجه لمن بينه وبينه مناسبة خفية في الباطن . فلو اجتمعت هذه الاسباب في شخص واحد ، تضاعف الحب لا محالة ... فان كانت هذه الصفات في اقصى درجات الكمال ، كان الحب لا محال في اعلى الدرجات . فلنبين الآن ان هذه الاسباب كلها لا يتصور كمالها واجتماعها الا في حق الله تعالى ، فلا يستحق المحبة بالحقيقة الا الله سبحانه وتعالى .

٣ - لا مستحق للمحبة الا الله

لا محبوب بالحقيقة عند ذوي البصائر الا الله تعالى ، ولا مستحق للمحبة سواه . وايضاحه بان نرجع الى الاسباب الخمسة ، التي ذكرناها ، ونبين انها مجتمعة في حق الله تعالى بجمليتها ، ولا يوجد في غيره الاحادها ، وانها حقيقة في حق الله ، ووجودها في حق غيره وهم وتخيّل ...

فاما السبب الاول ، وهو حب الانسان نفسه وبقاءه وكماله ودوام وجوده ، وبغضه لهلاكه وعدمه ونقصانه وقواطع كماله ، فهذه جيلة كل حي ، ولا يتصور ان ينفك عنها . وهذا يقتضي غاية المحبة لله تعالى ، فان من عرف نفسه ، وعرف ربه ، عرف قطعاً انه لا وجود له من ذاته ، وانما وجود ذاته ، ودوام وجوده ، وكمال وجوده ، من الله ، والى الله ، وبالله ...

والسبب الثاني ، وهو حبه من احسن اليه... يقتضي ان لا يحب الا الله تعالى . فانه لو عرف حق المعرفة ، لعلم ان المحسن اليه هو الله تعالى فقط...

والسبب الثالث ، وهو حبك المحسن في نفسه ، ... يقتضي حب الله تعالى ، بل يقتضي ان لا يحب غيره اصلاً ، الا من حيث يتعلق منه بسبب . فان الله هو المحسن الى الكافة ، والمتفضل على جميع اصناف الخلائق ...

واما السبب الرابع ، وهو حب كل جميل لذات الجمال ، لا لحظ يُنال منه وراء ادراك الجمال ، فقد بينا ان ذلك مجبول في الطباع . وان... جمال صفات الصديقين ، الذين تجبهم القلوب طبعاً ، ترجع الى ثلاثة امور: احدها علمهم بالله وملائكته... والثاني قدرتهم على اصلاح انفسهم واصلاح عباد الله بالارشاد والسياسة . والثالث تنزههم عن الرذائل والخبائث ... فانسب هذه الصفات الى صفات الله تعالى :

اما العلم فاين علم الاولين والآخرين من علم الله ؟ ...
واما صفة القدرة فهي ايضاً كمال... ولا حول ولا قوة الا بالله...
واما صفة التنزه عن العيوب والنقائص... فلا يتصور كمال التقديس والتنزه الا للواحد الحق...

واما السبب الخامس للحب فهو المناسبة والمشاركة ، لان شبه الشيء

منجذب اليه ، والشكل الى الشكل اميل... ولذلك... قال (النبي) :
 « الارواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها
 اختلف... » وهذا السبب ايضاً يقتضي حب الله تعالى ، لمناسبة باطنه...
 فهذه هي المعالومة من اسباب الحب ، وجملة ذلك متظاهرة في حق
 الله تعالى ، تحقيقاً لا مجازاً ، وفي اعلى الدرجات لا في ادناها .
 (الاحياء : ربع المنجيات : كتاب المحبة)

الاخلاص

اعلم ان كل شيء يتصور ان يشوبه غيره . فاذا صفا عن شوبه وخلص
 عنه ، سمي خالصاً . ويسمى الفعل المصطفى المخلص اخلاصاً... ومن كان
 غرضه محض التقرب الى الله تعالى فهو مخلص...
 وانما نتكلم الآن فيمن انبعث لقصده التقرب ، ولكن امتزج بهذا
 الباعث باعث آخر ، اما من الرياء ، او من غيره من حظوظ النفس .
 ومثال ذلك ان... يحجج ، ليصح مزاجه بحركة السفر ، او يتخلص من
 شر يعرض له في بلده ، او ليهرب عن عدو في منزله ، او يتبرم باهله
 وولده ، او يشغل هو فيه ، فاراد ان يستريح منه اياماً... او يتعلم العلم
 ليسهل عليه طلب ما يكفيه من المال... او توضأً ليتنظف او يتبرد...
 او يفعل شيئاً من ذلك ليعرف بالخير ، ويذكر به ، وينظر اليه بعين
 الصلاح والوقار...

فهما كان باعته هو التقرب الى الله تعالى ، ولكن انضاف اليه خطرة
 من هذه الخطرات ، حتى صار العمل اخف عليه بسبب هذه الامور ،
 فقد خرج عمله عن حد الاخلاص ، وخرج عن ان يكون خالصاً لوجه الله
 تعالى ، وتطرق اليه الشرك . وقد قال تعالى : انا اغني الشركاء عن الشرك .
 وبالجملة كل حظ من حظوظ الدنيا ، تستريح اليه النفس ، ويميل

اليه القلب ، قلّ ام كثر ، اذا تطرق الى العمل ، تكدر به صفوه ، وزال به اخلاصه . والانسان مرتبط في حظوظه ، منغمس في شهواته ، قلما ينفك فعل من افعاله ، وعبادة من عباداته ، عن حظوظ واغراض عاجلة من هذه الاجناس . فلذلك قيل : من سلم له من عمره لحظة واحدة ، خالصة لوجه الله ، نجاة ، واذلك لمعزة الاخلاص ، وعسر تنقية القلب عن هذه الشوائب . بل الخالص هو الذي لا باعث عليه الا طلب القرب من الله تعالى ... وهذا لا يتصور الا من محب لله ، مستمتر بالله ، مستغرق المهم بالآخرة ، بحيث لم يبقَ حب الدنيا في قلبه قرار . حتى لا يجب الاكل والشرب ايضاً ، بل تكون رغبته فيه كرغبته في قضاء الحاجة ، من حيث انه ضرورة الجيلة ، فلا يشتهي الطعام لانه طعام ، بل لانه يقويه على عبادة الله تعالى ... فمثل هذا الشخص لو أكل ، او شرب ، ... كان خالص العمل ، صحيح النية ، في جميع حركاته وسكناته . فلو نام مثلاً حتى يريح نفسه ، ليتقوى على العبادة بعده ، كان نومه عبادة ، وكان له درجة المخلصين فيه ...

وكم من اعمال يتعب الانسان فيها ، ويظن انها خالصة لوجه الله ، ويكون فيها مغروراً ، لانه لا يرى وجه الآفة فيها . كما حكى عن بعضهم انه قال : « قضيت صلاة ثلاثين سنة ، صليتها في المسجد ، في الصف الاول . لاني تأخرت يوماً لعذر ، فصليت في الصف الثاني ، فاعترتني خجلة من الناس ، حيث رأوني في الصف الثاني . ففرفت ان نظر الناس الي في الصف الاول كان مسرقي ، وسلب استراحة قلبي ، من حيث لا اشعر ! »

(الاحياء : ربع المنجيات : كتاب الاخلاص)

السمع

بعد بحث طويل في اباحة الفناء وتحريمه ، يصل الغزالي الى هذه النتيجة :

ان السماع قد يكون حراماً محضاً ، وقد يكون مباحاً ، وقد يكون مكروهاً ، وقد يكون مستحباً . اما الحرام فهو لاكثر الناس من الشبان ، ومن غلبت عليهم شهوة الدنيا ، فلا يحرك السماع منهم الا ما هو الغالب على قلوبهم من الصفات المذمومة . واما المكروه فهو لمن لا يتزله على صورة المخلوقين ، ولكنه يتخذ عادة له في اكثر الاوقات ، على سبيل اللهو . واما المباح فهو لمن لاحظ له منه الا التلذذ بالصوت الحسن . واما المستحب فهو لمن غلب عليه حب الله تعالى ، ولم يحرك السماع منه الا الصفات المحمودة .

اما ام آداب السامع ، في نظر الغزالي ، فهي :

١ - ان يكون مصغياً الى ما يقول القائل ، حاضر القلب ، قليل الالتفات الى الجوانب ، متحرراً عن النظر الى وجوه المستمعين وما يظهر عليهم من احوال الوجد ، مشتغلاً بنفسه ومراعاة قلبه ، ومراقبة ما يفتح الله تعالى له من رحمته في سره ، متحفظاً عن حركة تشوش على اصحابه قلوبهم . بل يكون ساكن الظاهر ، هادئ الاطراف ، متحفظاً عن التنجس والتثاؤب ، ويجلس مطرقاً رأسه ، كجولسه في فكر مستغرق لقلبه ، متمسكاً عن التصفيق والرقص وسائر الحركات ، على وجه التصنع والتكلف والمرااة ، ساكناً عن النطق ، في اثناء القول ، بكل ما عنه بد . فان غلبه الوجد ، وحركة بغير اختيار ، فهو فيه معذور وغير ملوم . ومهما رجع اليه الاختيار ، فليعد الى هدوئه وسكونه ...

٢ - ان لا يقوم ، ولا يرفع صوته بالبكاء ، وهو يقدر على ضبط

نفسه . ولكن ان رقص أو تباكى فهو مباح ، اذا لم يقصد به المראה ، لان التباكي استجلاب للحزن ، والرقص سبب في تحريك السرور والنشاط ، فكل سرور مباح واما تمزيق الثياب فلا رخصة فيه الا عند خروج الامر عن الاختيار . ولا يبعد ان يغاب الوجد ، بحيث يمزق ثوبه وهو لا يدري ، لغلبة سكر الوجد عليه ، او يدري ولكن يكون كالمضطرب الذي لا يقدر على ضبط نفسه . وتكون صورته صورة المكروه ، اذ يكون له في الحركة او التمزيق متنفس ، فيضطرب اليه اضطرار المريض الى الانين

٣ - موافقة القوم في القيام ، اذا قام واحد منهم في وجد صادق من غير رياء . وتكلف ، او قام باختيار من غير اظهار وجد ، وقامت له الجماعة . فلا بد من الموافقة ، فذلك من آداب الصحبة . وكذلك ان جرت عادة طائفة بتنحية العامة ، على موافقة صاحب الوجد اذا سقطت عمامته ، او خلع الثياب اذا سقط عنه ثوبه بالتمزيق . فالموافقة في هذه الامور من حسن الصحبة والمعاشرة ، اذ المخالفة موحشة ، ولكل قوم رسم (الاحياء : ربيع العادات : الكتاب الثامن)

الوجه

انه عبارة عن حالة يشمرها السماع . وهو وارد حق جديد ، عقيب السماع ، يحده المستمع من نفسه . وتلك الحالة لا تخلو عن قسمين ، فانها اما ان ترجع الى مكاشفات ومشاهدات ، هي من قبيل العلوم والتنبيهات ، واما ان ترجع الى تغيرات واحوال ، ليست من العلوم ، بل هي كالشوق والخوف ، والحزن والقلق والسرور ، والاسف والندم ، والبسط والقبض . وهذه الاحوال يهيجها السماع ويقويها ، فان ضعف بحيث لم يؤثر في تحريك الظاهر او تسكينه ، او تغيير حاله حتى يتحرك

على غير عادته ، او يطرق ، او يسكن عن النظر والنطق والحركة على خلاف عادته ، لم يسمَّ وجداً . وان ظهر على الظاهر سمي وجداً ، اما ضعيفاً واما قوياً ، بحسب ظهوره وتغييره للظاهر .

(الاحياء : ربع العادات : الكتاب الثامن)

الارهاق والتعلم

اعلم ان العلوم ، التي ليست ضرورية ، وانما تحصل في القلب في بعض الاحوال ، تختلف الحال في حصولها . فتارة تهجم على القلب ، كأنه القمي من حيث لا يدري ، وتارة تكتسب بطريق الاستدلال والتعلم . فالذي يحصل ، لا بطريق الاكتساب وحيلة الدليل ، يسمَّى الهاماً . والذي يحصل بالاستدلال يسمَّى اعتباراً واستبصاراً ...

فاذا عرفت هذا ، فاعلم ان ميل اهل التصوف الى العلوم الالهامية ، دون التعليمية . فلذلك لم يحرصوا على دراسة العلم ، وتحصيل ما صنفه المصنفون ، والبحث عن الاقاويل والادلة المذكورة ، بل قالوا : الطريق تقديم المجاهدة ، ومحو الصفات المذمومة ، وقطع العلائق كلها ، والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى . ومهما حصل ذلك ، كان الله هو المتولي لقلب عبده ، والمتكفل له بتنويره بانوار العلم . واذا تولى الله امر القلب ، فاضت عليه الرحمة ، واشرق النور في القلب ، وانشرح الصدر ، وانكشف له سر الملكوت ، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة ، وتلألأت فيه حقائق الامور الالهية ...

وزعموا ان الطريق في ذلك اولاً بانقطاع علائق الدنيا بالكلية ، وتفرغ القلب منها ، وبقطع الهمة عن الاهل والمال والولد والوطن ، وعن العلم والولاية والجاه ، بل يصير قلبه الى حالة يستوي فيها وجود

كل شيء وعدمه . ثم يخلو بنفسه في زاوية، مع الاقتصاد على الفرائض والرواتب، ويجلس فارغ القلب، مجموع الهم ، ولا يفرق فكره بقراءة قرآن ، ولا بالتأمل في تفسير ، ولا بكتب حديث ولا غيره، بل يجتهد ان لا يخطر بباله شيء . سوى الله تعالى . فلا يزال ، بعد جلوسه في الخلوة ، قائلاً بلسانه : الله ، الله ، على الدوام، مع حضور القلب ، حتى ينتهي الى حالة يترك تحريك اللسان ، ويرى كأن الكلمة جارية على لسانه . ثم يصبر عليه الى ان يحس اثره عن اللسان ، ويصادف قلبه مواظباً على الذكر . ثم يواظب عليه الى ان يحس عن القلب صورة اللفظ ، وحروفه ، وهيئة الكلمة ، ويبقى معنى الكلمة مجرداً في قلبه ، حاضراً فيه ، كانه لازم له لا يفارقه...

وعند ذلك ، اذا صدقت ارادته، وصفت همته، وحسنت مواظبته، فلم تجاذبه شهواته ، ولم يشغله حديث النفس بعلائق الدنيا ، تلعب لوامع الحق في قلبه...

انه لو فرضنا حوضاً محفوراً في الارض ، احتمل ان يساق اليه الماء من فوقه بانهار تفتح فيه . ويحتمل ان يحفر اسفل الحوض ، ويرفع منه التراب ، الى ان يقرب من مستقر الماء الصافي ، فينفجر الماء من اسفل الحوض . ويكون ذلك الماء اصفى وادوم، وقد يكون اغزر واكثر. فذلك القلب مثل الحوض ، والعلم مثل الماء ، وتكون الخواص الخمس مثل الانهار. وقد يمكن ان تساق العلوم الى القلب بواسطة انهار الخواص والاعتبار بالمشاهدات ، حتى يتلى علماً . ويمكن ان تسد هذه الانهار ، بالخلوة والعزلة وغض البصر ، ويعمد الى عمق القلب بتطهيره ، ورفع طبقات الحجب عنه ، حتى تتفجر ينابيع العلم من داخله.

فان قلت : كيف يتفجر العلم من ذات القلب، وهو خال عنه؟ فاعلم

ان هذا من عجائب اسرار القلب، ولا يسمح بذكره في علم المعاملة^(١) بل
 القدر الذي يمكن ذكره ان حقائق الاشياء مسطورة في اللوح المحفوظ،
 بل في قلوب الملائكة المقربين. فكما ان المهندس يصور ابنية الدار في
 بياض، ثم يخرجهما الى الوجود على وفق تلك النسخة، فكذلك فاطر
 السماوات والارض كتب نسخة العالم من اوله الى اخره في اللوح المحفوظ،
 ثم اخرجها الى الوجود على وفق تلك النسخة... فكان للعالم اربع
 درجات في الوجود: وجود في اللوح المحفوظ وهو سابق على وجوده
 الجسماني، ويتبعه وجوده الحقيقي، ويتبع وجوده الحقيقي وجوده الخيالي
 اعني وجود صورته في الخيال، ويتبع وجوده الخيالي وجوده العقلي اعني
 وجود صورته في القلب...

فنقول: القلب، قد يتصور ان يحصل فيه حقيقة العالم وصورته، تارة
 من الحواس، وتارة من اللوح المحفوظ، كما ان العين يتصور ان يحصل
 فيها صورة الشمس، تارة من النظر اليها، وتارة من النظر الى الماء الذي
 يقابل الشمس ويحكي صورتها. فهما ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح
 المحفوظ، رأى الاشياء فيه، وتفجر اليه العلم منه، فاستغنى عن الاقتباس
 من داخل الحواس، فيكون ذلك كتفجر الماء من عمق الارض. ومهما
 اقبل على الخيالات الحاصلة من المحسوسات، كان ذلك حجاباً له عن
 مطالعة اللوح المحفوظ، كما ان الماء، اذا اجتمع في الانهار، منع ذلك
 من التفجر في الارض، وكما ان من نظر الى الماء الذي يحكي صورة
 الشمس، لا يكون ناظراً الى نفس الشمس.

(الاحياء : ربيع المهلكات : كتاب عجائب القلب)

(١) قال الغزالي في مقدمة كتاب الاحياء: «ان العلم الذي يتوجه به الى الاخرة»
 ينقسم الى علم المعاملة وعلم المكاشفة. واعني بعلم المكاشفة ما يطلب منه كشف المعلوم
 فقط. واعني بعلم المعاملة ما يطلب منه، مع الكشف، العمل به. والمقصود من هذا الكتاب
 علم المعاملة فقط، دون علم المكاشفة، التي لا رخصة في ايداعها الكتب!...

الغزالي والانجيل

في كتب الغزالي كثير من آيات الانجيل ، وفيها اقوال مشابة لاقوال انجيلية ، وفيها اقوال منسوبة الى المسيح غير موجودة في الانجيل . واثبت لك بعض هذه الاقوال ، وثبت لك النص الاصيل مقابلها :

١ - آيات متاثلة

اما انت ، متى صمت ، فاذهن رأسك ، واغسل وجهك : لا تظهر للناس صيامك ، بل لاييك الذي في الحفا .
واما انت ، متى تصدقت ، فلا تعرف شمالك ما تفعل يمينك .

متى صليت ادخل مخدعك ، واغلق بابك ، وصل الى ابيك الذي في الحفا . وابوك الذي يرى الحفايا يكافيك .

(متى : ٦ : ١٧ ، ١٨ ، ٢٣)

ويلكم ، ايها الكتبة والفريسيون المراؤون ، لانكم تغلقون ملكوت السماوات في وجه الناس ، فلا تدخلون ولا تدعون الراغبين يدخلون .

ويلكم ، ايها الكتبة والفريسيون المراؤون ، فانكم كالقبور المحصصة ، ظاهرها رائق ، وباطنها كدس رفات واقدار .

(متى : ٢٣ : ١٣ ، ٢٧)

قال عيسى المسيح ، صلى الله عليه وسلم : اذا كان صوم احكم ، فليذهن رأسه وحيته ، ويسح شفتيه ، لئلا يرى الناس انه صائم ،

واذا اعطى يمينه فليخف عن شماله ،

واذا صلى فليخـ سترابه ، فان الله يقسم الثناء كما يقسم الرزق .
(الاحياء : ٣ : ص ٢٠٢)

قال عيسى ، عليه السلام : مثل علماء السوء . كمثل شجرة وقعت على غم النهر ، لا هي تشرب الماء ، ولا هي تترك الماء . يخلص الى الزرع .
ومثل علماء السوء . مثل قناة الحش ، ظاهرها جص وباطنها نتن ، ومثل القبور ظاهرها عامر وباطنها عظام موتى .

(الاحياء : ١ : ص ٤٥)

طوبى للمسكين بالروح ، فان لهم
ملكوت السموات ،

طوبى للودعاء ، فانهم يرثون
الارض ،

طوبى للانقياء القلوب فانهم
يعاينون الله .

(متى : ٥ : ٣ ، ٤ ، ٨)

سعتم انه قيل : عين بعين ، وسن
بسن . وانا اقول لكم : لا تقاوموا
الشريرا من لطمك على خدك الايمن ،
ادر له الاخرى ومن ادعى قميصك ،
اعطه مطرفك ! ومن سخرك ميلاً ،
سر معه ميلين !

(متى : ٥ : ٣٨ - ٤١)

لا تكتزوا لكم كنوزاً على
الارض ، حيث ينخر السوس والدود ،
وحيث ينقب السارقون فيسرقون .
بل اکتزوا لكم كنوزاً في السماء ،
حيث لا ينخر سوس ودود ، وحيث
لا ينقب سارقون فيسرقون ، لان
قلبك حيث كتزك .

(متى : ٦ : ١٩ - ٢١)

قال المسيح عليه السلام : طوبى
للمتواضعين في الدنيا هم اصحاب
المنابر يوم القيامة ،

طوبى للمصلحين بين الناس في
الدنيا ، هم الذين يرثون الفردوس
يوم القيامة ،

طوبى للمطهرة قلوبهم في الدنيا ، هم
الذين ينظرون الى الله تعالى يوم القيامة
(الاحياء : ٣ : ٢٣٧)

ورأيت في الانجيل : قال عيسى
ابن مريم ، عليه السلام : لقد قيل
لكم ، من قبل ، ان السن بالسن ،
والانف بالانف . وانا اقول لكم :
لا تقاوموا الشر بالشر ، بل من ضرب
خدك الايمن فحوّل اليه الخد الايسر ،
ومن اخذ ردائك فاعطه ازارك ، ومن
سخرك لتسير ميلاً ، فسر معه ميلين .
(الاحياء : ٦ : ٥٢)

قال عيسى ، عليه السلام : لا
تتخذوا الدنيا رباً ، فتتخذكم عبيداً .
اكتزوا كنزكم عند من لا يضيعه ،
فان صاحب كنز الدنيا يخاف عليه
الآخذ ، وصاحب كنز الله لا يخاف
عليه الآخذ .

(الاحياء : ٣ : ١٣٩)

لا يقدر احد ان يخدم ربين : انه
اما ان يبغض الواحد ويحب الآخر ،
واما ان يلزم الواحد ويهمل الآخر .
لا تقدر ان تخدموا الله والمال .
(متى : ٦ : ٢٤)

انظروا الى طيور السماء : انها لا
ترع ، ولا تحصد ، ولا تدخر ، وابوكم
السموي يقوتها . الستم افضل منها
بكثير؟ ... تأملوا زنايق الخلق كيف
تنمو : انها لا تتعب ، ولا تغزل . ومع
ذاك سليمان نفسه ، في كل مجده ، ما
اكتسب كواحدة منها .
(متى : ٦ : ٢٦ ، ٢٨ ، ٢٩)

قال عيسى عليه السلام : لا
يستقيم حب الدنيا والآخرة في قلب
مؤمن ، كما لا يستقيم الماء والنار في
اناء واحد .
(الاحياء : ٣ : ١٤٠)

قال عيسى :
انظروا الى الطير لا ترع ، ولا
تحصد ، ولا تدخر ، والله تعالى يرزقها
يوماً بيوم . فان قلتم : نحن اكبر
بطوناً ، فانظروا الى الانعام كيف
قيض الله تعالى لها هذا الخلق
للرزق .
(الاحياء : ٤ : ١٩٠)

٢ - اقوال منسوبة للمسيح ، وليست له :

- كم من جسد صليح ، ووجه صليح ، ولسان فصيح ، غذا بين اطباق النار يصيح .
(الاحياء : ٤ : ٢٨٣)

- من الذي يبني على موج البحر داراً ؟ تلکم الدنيا ، فلا تتخذوها قراراً .
(الاحياء : ٣ : ١٤١)

- يا معشر الخواريين ، جوعوا بطونكم ، لعل قلوبكم ترى ربكم .
(الاحياء : ٣ : ١٠٦)

- لا تنظروا الى اموال اهل الدنيا ، فان يريق اموالهم يذهب بنور ايمانكم .
(الاحياء : ٣ : ١٤٤)

- مثل طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر ، كلما ازداد شرباً ، ازداد عطشاً ، حتى يقتله .
(الاحياء : ٣ : ١٦٤)

•

- صعب رجل عيسى ابن مريم ، عليه السلام ، فقال : اكون معك واصحبك . فانطلقا ، فانتهيا الى شط نهر ، فجلسا يتغديان ، ومعهما ثلاثة ارغفة ، فاكلا رغيفين ، وبقي رغيف ثالث . فقام عيسى ، عليه السلام ، الى النهر فشرب ، ثم رجع ، فلم يجد الرغيف ، فقال للرجل : من اخذ الرغيف ؟ فقال : لا ادري . (قال) فانطلق ومعه صاحبه ، فرأى ظبية ، ومعها خشفان لها . . . فدعا احدهما ، فاتاه ، فذبحه ، فاشتوى منه ، فاكل هو وذاك الرجل . ثم قال للخشف : ثم باذن الله اقام . فقال للرجل : اسألك بالذي اراك هذه الآية : من اخذ الرغيف ؟ فقال : لا ادري . فانتهيا الى مغارة ، فجلسا ، فاخذ عيسى ، عليه السلام ، يجمع تراباً وكثيباً ، ثم قال : كن ذهباً باذن الله تعالى ا فصار ذهباً . فقسمه ثلاثة اثلاث ثم قال : ثلث لي ، وثلث لك ، وثلث لمن اخذ الرغيف . فقال : انا الذي اخذت الرغيف . فقال : كله لك . وفارقه عيسى ، عليه السلام .

(الاحياء : ٣ : ١٨٨)

نستغفر الله

ونحن نستغفر الله تعالى من كل ما زلّت به القدم ، او طغي به القلم ، في كتابنا هذا^(١) ، وفي سائر كتبنا .

ونستغفره من اقوالنا ، التي لا توافقها اعمالنا .

ونستغفره مما ادّعيناه ، وظهرناه من العلم والبصيرة بدين الله تعالى ،

مع التقصير فيه .

ونستغفره من كل علم وعمل ، قصدنا به وجهه الكريم ، ثم خالطه غيره .

ونستغفره من كل وعد وعدناه به من انفسنا ، ثم قصرنا في الوفاء به .

ونستغفره من كل نعمة انعم بها علينا ، فاستعملناها في معصيته .

ونستغفره من كل تصريح وتعريض بنقصان ناقص ، وتقصير مقصر ،

كنا متصفين به .

ونستغفره من كل خطرة دعئنا الى تصنّع وتكلف ، تزيّن للناس ،

في كتاب سطرناه ، او كلام نظمناه ، او علم افدناه او استفدناه .

(الاحياء : في صفحات الحتام)

فلاسفة العرب

سلسلة دراسات ومختارات

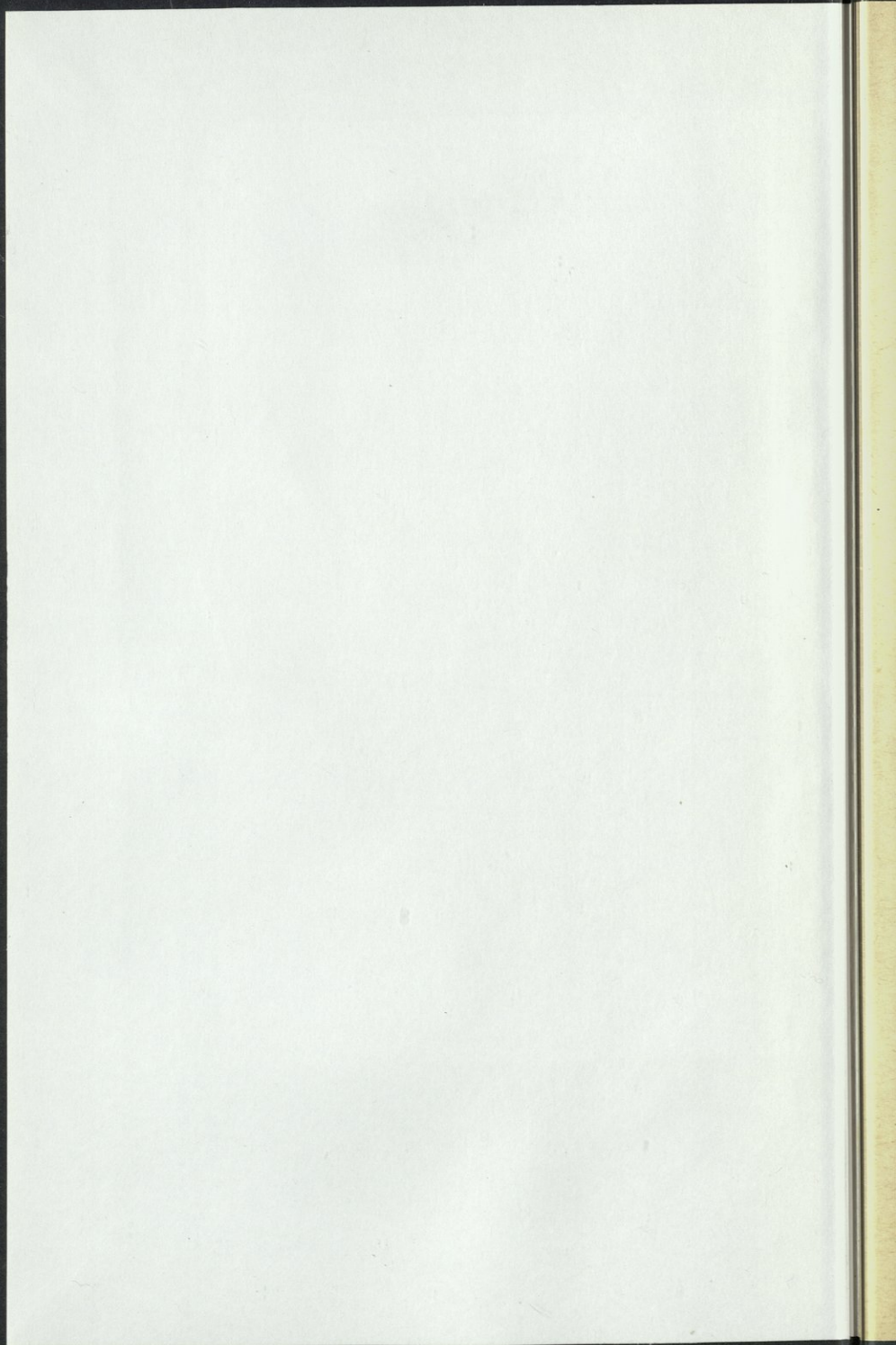
ظهر منها :

- ١ - ابن الفارض (طبعة ثانية)
- ٢ - ابو العلاء المعري (طبعة ثانية)
- ٣ - ابن خلدون (طبعة ثانية)
- ٤ - الغزالي : في جزئين (طبعة ثانية)
- ٥ - ابن طفيل
- ٦ - ابن رشد : في جزئين
- ٧ - اخوان الصفا

للمؤلف ايضا :

- قربان الاغاني : معرب عن طاغور

تمّ طبع هذا الكتاب
في السادس عشر من شهر شباط
سنة ١٩٥٣



LIBRARY

DATE DUE

[illegible]

AUB. LIBRARY

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



00493920



المستودع الوحيد المكتبة الشرقية ، ساحة النخبة - بيروت
١٠٠ غ ل .